ليالى الاسكندرية

رواية



ت ٠٣/٥٣٥٤٤٣٨ اسكندرية

ليالى الإسكندرية

ليالـــى الإسكنـــدرية

مصطفـــى نصـــر

كمبيوتر : (دار الوفاء)

الطباعة : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

شارع ملك حفنى قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن دربالة أمام بلوك رقم ٣

الرقم البريدى : ٢١٤١١ – اسكندرية

رقم الإيداع : ١١٨٤٨/٢٠٠٠

الترقيم الدولى: X- 098 - 327 - 977

ليـــالـــى الإسكنـــدريـــة

رواية

مصطفـــى نصـــر

الناشـــر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع

ت : ٠٣/٥٣٥٤٤٣٨ - الإسكندرية

(١)

كان يقرأ فى كتابه وهو جالس فوق مقعد أبيه الخيزرانى المفضل .. (لم يكن كتابا دراسيا).

جاءت هى خلفه وصاحت، ولأنه منهمك فى الكتاب؛ لم يتيقن مما قالته ..

حاول أن يتمالك نفسه وأن يتحمل صراخها هذا – خاصة أنها تصرخ فيه كثيرا ولأقل شئ، مرة لأنه ترك طبقا كان يأكل فيه فوق المائدة، أو لأنه سار فوق البلاط الممسوح قبل أن يجف .. الخ.

لكنها لم تتوقف، صوتها الحاد؛ الذى يكرهه كثيرا؛ يتدافع داخل أذنيه كسائل حار يخرقهما.

صفعها فى عنف، قفز من مكانه ودفع جسده كله لصفعها، أرادت أن تهجم عليه فركلها، وبصق فوق جسدها الذى دفع المقعد الكبير إلى الخلف.

سار، أحس بعزق بارد فوق جبهته. وآهة طويلة تخرج من صدره ..

لا يدرى ما الذى جعله يصفعها هكذا .. أول مرة يتجاسر ويفعل ما فعله منذ أن تزوجها أبوه. لعل هذا ما جعلها تصمت. فهو لم يسمع نحيبها حين سار فى الصالة الكبيرة. ربما ألجمتها المفاجأة فأخرستها.

سيأتى أبوه – كعادته – بعد الثانية بقليـــل. يحمـــل رأسه المستدير الأصلع ويبتسم لها فى ود، يضع بين يديـــــها أكياس الفاكهة التى يأتى بها.

ستقــول له بعد ذلك عن المصيبة التى حلــت بـــها، ويردد – هو آسفا :

– عنده حظ. لأنى لم كن موجودا.

ثـــم يسبه ويلعن أمه التى ماتت (هو إذا ما غضـــب منه يسبها، رغم أنه كان يحبها ويحترمها قبل أن تموت).

خرجت آهة من صدره (إلى أين يذهب الآن .. ؟).

لقد خرج من البيت دون شئ، لا يملك سوى ملابسه التى يرتديهـــا، ويضع جنيهات (آخر ما تبقى من مصروفـــه الشهرى) حتى كمانه التى يحاول ألا تفارقه نسيها فى غمـــرة غضبه.

أيذهــب إلى جدته لأمه، آه. لا لن يذهـــب إليـــها. فهى إن علمت ما حدث، ستثور وتمســك سـماعة التليفــون غاضبة وتسب بسيمة (زوجة أبيه) وتلعنها؛ وتـــهددها بأنـــها ستطالب بممتلكات أمه وأموالها التى فى حوزة أبيه؛ والتـــى تدر عليهما مبلغا كبيرا من المال؛ تعودتا أن يعيشا عليه.

لا، لن يذهب إليها فسينتهى الموضوع حتما بأن يعود ثانية إلى بسيمة، ويعود كل شئ إلى ما كان عليه ..

كما أن خالته (دولت) التى تعيش مع جدتـــه الآن، لا تحبه وتخشى على كريمة ابنتها منه.

آه، كريمة ذات الوجه النحيــف؛ والجســد الرقيــق؛ والصوت الحانى.

إنه يتحدث معها كثيرا كلما ذهب إلى جدته. لكنه لم يتذكرها أبدا كأنثى .. أحيانا، كان يجد رغبة فى الجنس، خاصة إذا ما شاهد فيلما مثيرا، أو سمع حكاية من حكايات الطلبة المغتربين الذين يستقبلون النساء فى شققهم.

فيفكر وقتذاك فى أشياء كثيرة؛ ويحلم ببعض النساء فى نومه.

لكن كريمةلا، فهى كالملاك البريء.

جدته العجوز تريد له أن يتزوجها. هو يحس بهذا. فإذا ما ذهب إليهن تقول هامسة :

- كريمة فى حجرتها.

لهذا تغضب خالته وتثور على ابنتها إذا ما أطالت الجلوس معه.

شعر بالضيق لأن السيارات المتدفقة فى (شارع الخديوى) لم تتوقف. ولو لحظة ليمر.

يريد أن يبتعد عن "العطارين" حيهم.

قد تكسر بسيمة الكمان انتقاما منه، أو تمزق كتبه التى تكرهها، وتتشاجر معه كثيرا بسببها، لأنها تجلب الفئران والصراصير للشقة.

اخترق الزحام فى سوق "باب عمر باشا" كاد يدفع امرأةبدينة تسد الممر الضيق للمشاة بجسدها.

يسأل نفسه عن المكان الذى سيذهب إليه رغم سيره دون توقف ودون تفكير "سأذهب إلى قهوة "أبو دومة" التى أقابل فيها "سيد" صديقى. أجل. سيد هو الذى سيحل مشكلتى. لن أعود إلى البيت، فقد سار بيت بسيمة.

لديه إحساس منذ شهور بأن والده يريـــده ان يـــترك البيت (فقد أعلن غير مرة أنه ضاق برسوبه المتكرر فى كلية الهندسة. وأعلن – غير مرة – أن يفارقه منذام قد كبر وصار قادرا على العمل والكسب).

لم يجد سيد، المقاعد فى الخارج خالية، فالشمس فـــى هذا الوقت تكون حامية، كما أن معظـــم رواد القـــهوة مـــن الفنانين، والفنانون – عادة – يصحون متأخرين، ولا يـــأتون إلى القهوة إلا عند العصر.

جلس، شعر بارتياح شديد، لن يهتم بقســوة الشمـــس وشدتها، ولا بأى شئ آخر، المهم أن يسترخى قليلا.

صفعه لبسيمة أرهقه، كأنه كان فى مباراة ملاكمـــة، هى أطول منه، ومن أبيه، وأعرض منهما.

كانت نحيفة عندما تزوجها أبوه. وأتت إلى شقتـــهما خجلة. تخفي وجهها بوشاحها.

لو أمسكت به – الآن – لهرسته تحتها.

تقترب الساعة من الثانية. دقائق قليلة ويعـــود أبـــوه إلى البيت. لو أجلت بسيمة ثورتها – تلك – لحين عودة أبيه، ما كان شـــئ من هذا قد حدث، ففى وجوده لا يســـتطيع أن يرد عليهـــا مهما فعلت. كل ما يفعلـــه هـــو هروبـــه إلـــى الشارع، ثم العودة بعد ساعات قليلة، يكون فيها قد ارتاح.

(البياضة أمامه، والنسوة يشترين الخضار، ويمـــرون أمام القهوة بما يحملن من خضار وفاكهة).

اقترب ياسين – عامل القهوة – فرحا :

– أهلا بالباشمهندس.

ابتسم له (آثار الغضب تلاشت من فوق وجهه. لعل هذا بسبب رغبته فى ضربها منذ أول يوم دخلت فيه شفتهما).

- سيأتى الأسطى سيد بعد قليل.

(قال هذا له، لأنه يراه يحضر إلى القهوة لأول مرة وحده دون سيد).

قابل سيد فى معهد "إبراهيم عبد الله للموسيقى"، التحق به دون علم أبيه كان يجلس صامتا طوال الوقت، يستمع إلى شرح "الأستاذ" بينما سيد يكثر من التحدث مع كل الجالسين.

ذات يوم أمسك كمان زميل له فى المعهد. وداعب أوتاره بأصابعه (كلما رأى كمانا تتملكه رغبة فى لمسه ومداعبة أوتاره) لم يكن يصحب كمانه معه فى المعهد. فقد ذهب إليه ليتعلم العزف على العود لا الكمان.

عزف على الكمان، نسى نفسه، وطال الوقت به وهو يعزف. وصمت الجميع. كان يعزف مقطوعة "النهر الخالد" التى يعشقها ويعزفها بمهارة.

قام سيد من مكانه وقبله، رغم أن علاقتهما لم تزد عن التحيات من بعيد، قال :

- مادمت تعزف بهذه المهارة، فما الذى آتى بك إلى هنا ؟

- لأتعلّم العزف على العود.

الكل ازداد اقترابا منه، سألوه عن سبب إتقانه العزف هكذا، قال :

- إننى أعزف على الكمان منذ ان كنت فى العاشرة.

لكن سيد صار صديقه حقا، قال له إنه يحب الموسيقى ويعزف على آلات كثيرة "سماعى". علمه عازف عجوز العزف على العود. لكنه يود أن يتعلم العزف على أصوله. (أن يقرأ النوتة الموسيقية).

وأخبره سيد – أيضا – بأنه أسس فرقة موسيقية تحيى بعض الحفلات الصغيرة (ختان، أعياد ميلاد .. الخ).

منذ زمن بعيد وهو يود الاقتراب من فرق "العوالم". يريد أن يعزف على كمانه. أو عوده، أو أى آلة أخرى، خلف مطرب يغنى. أو راقصة ترقص ويتابعه كل ذلك العدد الذى يرتاد الحفلات.

أتى – هو – مع سيد إلى قهوة أبو دومة. رآه – صاحب القهوة – وهو فى نفس الوقت وكيل الفنانين، يؤجر لهم الآلات ويتفق مع "العوالم". سأل سيد عنه :

– زبون جديد ؟

وقف هو فزعا، فأبو دومة عملاق. ووجهه شديد الامتلاء. قال سيد :

– الباشمهندس توتو، فنان كبير.

ضحك الرجل وهو ذاهب إلى مكتبه القريب من النصبة :

– مهندس وفنان، وتوتو ؟!

ثم ضحك بصوت مرتفع. لفت إليه كل الجالسين فى الخارج.

نسى فى القهوة أباه وبسيمة. وفرح أكثر لأنها استطاعت أن تنسيه كلية الهندسة التى لا يطيق كتبها وبناءها الشامخ الذى يقهره.

اقترب ياسين منه ثانية :

- أحضر لك القهوة ؟

أومأ برأسه. ياسين يعرفه جيدا، فكثيرا ما جلس بجواره، يحكي له عن حياته أيام أن كان طبالا ذا شأن في فرقة عوالم بالبحيرة.

جاء إلى الإسكندرية طمعا في الشهرة. لكن "الفرق" هنا لم ترحب به. قالوا "دقة طبلته، كدقات الغوازى". عرض عليه أبو دومة - أخيرا - أن يعمل في قهوته.

الآن - هو - لا يعمل كطبال إلا مع سيد، فرقة على قد حاله.

تحسس - توتو - النقود القليلة فى سترته. إنها لن تكفيه لأيام قلائل ولن يستطيع أن يطلب من أبيه مليما، بل لن يستطيع أن يريه وجهه.

اشترك فى إحياء حفلات مع سيد. الأول كان فوق سطح بيت قديم. عزف على الكمان، لم يصفق له الناس كثيرا. لكنه كان يعزف خلف المطربين والراقصات. أحس سيد بالسعادة. فلأول مرة يعزف فى فرقته عازف كمان. فى كل مرة كان يكتفى بعازف أكورديون وطبال.

لم يعطه سيد مبلغا كبيرا. لكنه سعد كثيرا. فهو أول مبلغ يدّخل جيبه من عمله.

عاد متأخرا تلك الليلة. اضطر أن يدق الباب بيده. بعد أن ضاق من الضغط على الجرس دون طائل.

فتحت بسيمة له الباب بعد وقت طويل. كانت في قميص النوم. لم يأت أبوه غاضبا وسابا كما كان يتوقع (علم بعد ذلك أنه تشاجر مع بسيمة. وأنها بكت طوال الليل، وذلك لأنها خرجت من حجرة النوم بقميصها العارى).

جاء سيد بعد ذلك، لم يصدق نفسه :

- توتو، أهلا بك.

ابتسم له، كان سعيدا حقا بحضوره.

- انتظرناك منذ ساعات.
- خير ؟!
- لقد ضربتها وتركت البيت.
- وأبوك ؟!
- لو بقيت حتى يعود فيسطردنى أيضا.

شرد سيد، كان حزينا من أجله، مع أنه - هو - لم يكن حزينا. فسوف يرتاح من كتب الهندسة وكلمات أبيه اللاذعة كلما رآه.

- **وماذا ستفعل ؟**
- **لا أدرى.**

جاء ياسين وقال :

- الباشمهندس ينتظرك منذ وقت طويل.

أحس ياسين بأنهما مشغولان. فأسرع بالصينية إلى داخل القهوة.

لو يستطيع أن يحضر كمانه وكتبه من بسيمة، فكيف سيعيش بدونهما ؟!

كان يترك كتب الهندسة ويقوم ليكتب خواطره، أبوه- قبل أن يتزوج بسيمة - كان يعجب بما يكتب. ويختار له الكتب الأدبية التى تساعده على ذلك وكان يقف أمامه هو وأمه يعزف لهما على كمانه، فينظر أبوه إليه فرحا. ثم يشده إليه ويقبله.

الآن - هو - يكره كتبه، ويكره كمانه. وإذا ما سمعه يعزف عليها يصرخ من حجرة نوم بسيمة :

- أرمى هذه الهبابة وذاكر.

ورآه يوما يقرأ كتاب "أصول الدافع الجنسى" لكولن ولسون، صرخ يومها حتى سمعه الجيران، نادى على بسيمة :

- تعالى، انظرى ماذا يقرأ أصول الدافع الجنسى.

بسيمة لا تعرف القراءة، لكنها تعرف مادا تعنى كلمة "الجنس". فنظرت إلى توتو باحتقار ولم ترد.

يومها مزق أبوه الكتب وهو يصرخ كأنه يبكى.

قال لسيد :

- أنت مهموم أكثر منى، هذه خطوة كان يجب أن أتخذها منذ وقت طويل.

قام سيد دون أن يرد عليه، ظن توتو أنه سيقضى حاجته داخل القهوة.

لكنه عاد ومعه ياسين، قال ياسين :

- لا تهتم، سأحدث حماتى لتسكنك فى بيتها حتى تعود المياه لمجاريها وتعود لأهلك.

قال سيد معتذرا :

- لا تؤاخذنى، كنت أود أن تعيش معى. لكن أمى .....
- لا أريد أن أثقل عليك، المهم أن تجد لى عمـــلا، أريــد أن أحيى حفلات كثيرة.

* * *

ســار بين سيد وياسين، أول مـــرة يعــرف أنــهما يسكنان بيتا واحدا، قال لسيد فى الطريق :

- لم أتمكن من إحضار كمانى.
- كلما وجدت عملا، سأستأجر لك كمانا من "أبى دومة".

وقفا فوق جبل عال. بدأ سيد وياسين نزول الجبـــل وقف توتو يراقبهما رأى الحارة تحته.

كان ياسين يحمل جاكتته البيضاء على ذرعه، وســيد صامت طوال الطريق مهموم. مشغول بتوتو.

وهو مشدود بما يرى، نسوة يجلسن خارج البيــوت، يتابعونهم فى فضول.

قال ياسين :

- انتظر حتى أتفاهم مع حماتى.

مرت فتاة تحمل إناء كبيراً مملوءا بالمـــاء، وترفــع ذراعها لتسنده حتى لا يقع، كان رداؤها ممزقا تحت الإبـــط، فيظهر جسدها الأسمر.

قال سيد :

- أخشى عليك الحياة هنا، كما أنك لا تملك مالا لتعيش فـــى لوكاندة.

كان توتو سعيدا بما يرى، نسى أنه ترك أباه غاضبا.

يحلم بتجربة مثيرة تتسيه الملل الذى يجده فى الشقة بين وجه بسيمة وحديث النسوة، وكتب أبيه المتراصة التى هجرها منذ أن تزوج بسيمة، حتى كمانه الحبيب كان يجد الملل - أحيانا - بين أوتاره.

- تلك المرأة ليس لديها سوى أكواخ من صفيح صدئ. وأنت تعودت على العز.

عاد ياسين، قابلت عيناه عينى توتو. رغم هذا لم يحدثه، كأن الأمر لا يعنيه، ذهب إلى سيد، قال له :

- ليس هناك مكان سوى مع بخيت.

توتو يعرف بخيت هذا. ضرير يغنى بصوت جميل. سمعه مرتين فى حفلات مع سيد، قال سيد فى ضيق وآسى :

- يسكن مع بخيت ؟!

قال توتو :

- أسكن مع العفريت. المهم أن أسكن.

لم يتحرك ياسين إلا بعد أن قال سيد فى ضيق :

- ليس أمامنا سوى هذا.

سار إلى المرأة، حماته فى خطوات بطيئة حزينة. كانت تجلس فوق حاشية متآكلة أمام البيت. وامرأة أخرى تقف أمامه "فرش" الخضار الملتصق بنافذة البيت.

أسرعت المرأة إلى ياسين، صرخت فيه، سمع توتو صوتها من بعيد :

- ماذا يريد هذا الولد الذى ينظر ناحيتنا ؟!

كـان – حقيقة – يتابعـهما فـى دهشـة واهتمـام شديدين. شدها ياسين بعيدًا حتى لا يسمعها توتو. قال سـيد مبتسما :

– إنها زوجته.

لم يخف توتو. بل ود الاقتراب من البيت ليناقشـها. ويسألها عما يغضبها منه.

* * *

تناول توتو الغداء مع سيد فى شقته، تتحرك أمه فـى خفة. تحاول أن يبدو صوتها وشكلها كامرأة صغيرة.

رحبت به كثيرا. وأبدت أسفها لما حدث، فـهو لـن يستطيع النوم فى شقتها لأن زوجها شديد الغيرة عليها.

كان شعرها المصبوغ ينسدل فوق ظهرها العـارى. والكحل فى عينيها، وآثار روج خفيف فوق الخدين.

وضعت الأطباق، ودخل زوجها هريدى، هـو ليـس والد سيد، ولا يمكن أن يكون كذلك. فهو أكبر منه بسـنوات قليلة.

قالت أم سيد فرحة :

– هريدى، زوجى.

حياهم الرجل، ودخل حجرة أخرى، ولم يخرج منها.

* * *

انتقل بعد ذلك إلى الكوخ الذى سيسكنه، كان مواجها لدرج البيت، وبخيت نائم وصدره العريض عار ينز العـرق منه، قال سيد عنه :

– لقد جاء إلى الإسكندرية ليعالج عينيه.

كان الوقت قد تأخر، والظلام يبـــدأ فـــى الاقـــتراب ويتسلل من خلال فتحات الكوخ، نام فوق "المرتبة" التى أتـــى بها سيد من لدى أمه.

حلم ببسيمة تصرخ فيه وهو يضربها، وأبوه يدفعـــه في صدره. كانت صلعته المستديرة تنز عرقا.

بكى توتو وقتها، لم يدرك إلا وبخيت يوقظـــه مـــن نومه:

- قم. قم.

لم يكن قد انتهى بعد من البكاء :

- ما الذى يبكيك ؟

- كنت أحلم.

- من أنت، وما الذى جاء بك إلى كوخى.

- أننى صديق لسيد، توتو. طالب الهندسة. ألا تذكرنى يـــا ريس بخيت.

صاح مندهشا :

- الباشمهندس. لقد شككت فى هذا. قلت أنه صوته. لكـــن لم أصدق، فما الذى سيجيء بك إلى كوخى ؟!

أخذ يتحسس طريقه. قام توتو ليساعده.

(٢)

البيت مكون من ثلاث طوابق.

الدور الأرضى تسكنه - من الداخل - تركية صاحبة البيت، مع ابنتها جميلة وفى الخارج تسكن فايقة - أم السيد - التى تمتلك دكانا فى سوق العطارين للملابس المستعملة.

والدور العلوى تسكنه زكية - الابنة الكبرى لتركية - وزوجها ياسين.

السطح يشغل بالأكواخ، وتؤجره تركية للصعايدة الذين يأتون إلى الإسكندرية يمسحون الأحذية، ويعملون فى المعمار، ويبيعون السودانى والحلوى - صيفا - على الكورنيش.

* * *

تركية، ليس هو اسم صاحبة البيت الحقيقى، ولا الوحيد. فاسمها الحقيقى "بخيتة"، لكن من صغرها يدعونها بتركية، على الرغم من أنه ليس فى أسرتها أى أصول تركية. لكن جمالها، واحمرار بشرتها جعلهم يدعونها بهذا.

وقد شاهد شباب الحارة فيلما سينمائيا عن الفتـــوات، ظهرت فيه ممثلة قريبة الشبه بتركية فى جمالها، وحركتـــها، وكان اسمها فى الفيلم المعلمة شطة، صاح أحدهم :

- إنها تشبه تركية.

من يومها والشبان يدعونها شطة، جـــاراهم بعـض أهالى الحارة (رجالا ونساء)، وعندما علمت بــهذا ضحكـت واستحسنت الاسم.

* * *

أسرة تركية كلها تقريبا تعمل فى كار العوالم. أمــها كانــت عالمة مشهورة، وكذلك أخواتها البنــات (فأمــها لــم تنجب إلا الإناث).

ابنة أخت من أخوتها تعمل الآن فى ملــهى مشـــهور بالقاهرة. ويقولون أنها رقصت فى عدد محدود من الأفـــلام السينمائية - وتنشر المجلات والجرائد صورها، لكن تركية لم تفلــح فى هذا العمل أبدا. تعبت أمها العالمة المشهورة فــى أن تعلمها الرقص كانت تقف على المسرح بوجهها الحســن، وقامتها المشدودة. فيهلل رواد الجفل، يمنون أنفسهم بمشاهدة راقصة ماهرة وعالمة متمرسة. لكن عندما ترقص يتحـــول الإعجاب إلى ضحك وسخرية، فـــهى تبــدو فــى رقصــها كالبلهاء.

وإذا غنت، ضاق بها المدعوون، فهى لا تستطيع أن تحفــظ لحنا أبدا، تقول الكلمات بطريقة ممجوجة لا ترتاح لها الأذن.

كانوا يسمونها بين العوالم (تركية الهبلة).

لهذا فرحت عندما جاءها فهمى (والد زكية وجميلة) وعرض عليها الزواج مشترطا ألا تعمل مع العوالم ثانية.

اشترى لها نصيب أخواتها البنات فى البيت الذى تسكنه الآن، ومع ما ورثته عن أمها صار البيت كله لها.

انتقل العوالم بعد ذلك إلى شارع "الزمزمى" القريب جدا من البياصة والذى يضم عوالم الإسكندرية، حيث توجد محلات تأجير الآلات الموسيقية، ومكاتب أصحاب الفرق الكبيرة : حمامة العطار، والمسيرى، والسيد بخيت وغيرهم وتوجد أيضا المقاهى الخاصة بهم.

لم يتبق فى الحارة سوى تركية وذكرياتها الحزينة عن العوالم. وبعض العوالم القدامى الذين آثروا البقاء فى الحارة كما كانوا.

*****

جاء ياسين إلى تركية بعد أن دله البعض ليسكن بيتها. أعجب بابنتها زكية (لم تكن قد امتلأت كما هى الآن).

طلب أن يتزوجها، عارضا نفسه كطبال مشهور فى قرى البحيرة، والمستقبل أمامه كبير. رحبت تركية، بعد أن أكد قوله صديق قديم للأسرة، مازال يعمل مع العوالم وتركية تعلم أن الطبالين - الآن - يتقاضون مبالغ كبيرة، خاصة الذين يعملون مع الراقصات، لكن شيئا مما قاله لم يتحقق.

ولكن لا ينسى عزفه على الطبلة. كان يتمرن عليها بالساعات قبل النوم، مما يقلق تركية ويضايق زكية التى لا تجد منه سوى الحديث والأحلام.

ضاقت به تركية يوما، فضربته بالطلبة على رأسه فشجته، ثم رمت الطبلة من النافذة. وأقسمت أن لم يجد له عملا آخر، لن تدخله البيت ثانية.

شكا ياسين لـ "أبو دومة" - وكيل الفنانين - الذى كان ياسين يسأله دائما عن فرقة تطلب طبالا، ضحك أبو دومة وعرض عليه أن يعمل ساقيا فى قهوته إلى أن يجد له فرقة ترضى أن يعمل طبالا معها.

اضطرت زكية أن تقيم فى عشتها تلك. تبيع فيها الفاكهة المعطبة، والخضروات النخرة اليابسة التى يرمونها فى وكالة الخضار - إذا لم يجدوا لها مشتريا.

أرادت فايقة - التى تلتصق العشة بنافذتها - أن تعترض، لكنها خافت من زكية وتركية. ومن لسانيهما السليطين.

* * *

الأغراب الذين يسكنون الأكواخ ويخرجون من البيت دون أن ينظروا حولهم، ومن يجرؤ على ذلك، تصيح فيه تركية غاضبة :

- اخفض بصرك أم أنك لص وتعاين الأشياء لتأتى لسرقتها مساء.

ولا يستطيع أحد أن يرد عليها أو يعترض وإلا طردته ورمت ملابسه من فوق السطوح.

كما أنها لا تسمح لهم إلا باستخدام دورة المياه التى فى شقة زكية، ومحظور عليهم دخول الدور الأرضى بأى حال من الأحوال.

جاء ياسين إليهما فى الكوخ مساء، كوخهما مواجـــه لدرج البيت، كان الباب مفتوحا، شاهد توتو أطفال ياسين وهم ينظرون إلى أبيهم مبتسمين فى خجل.

قال ياسين لهم :

- انزلوا إلى أمكم.

ناداهم توتو، لكن الأطفال أسرعوا هابطين.

جاءت جميلة بعد ذلك، نظرت من فوق الدرج وهـــى تبتسم فى خجل.

عندما رآها ياسين أكفهر وجهه ولم يعلق، أحس توتو أن أمها ستأتى خلفها وستصبح فيها غاضبة كما يسمعهما منذ أن جاء إليهم.

الوحيد الذى لم يحس بما حدث هو بخيت.

وجه جميلة حسن، شديد الشبه بوجه أمـــها تركيـــة. لكن جسدها ليس ممتلئا مثلها.

حكى ياسين لتوتو عن عمله مع الغوازى فى قـــرى البحيرة. كان بخيت - وقتها - ينشد بصوته الجميل، الغوازى يتشاجرن من أجل ياسين، كل واحدة تريده أن يعمل معها.

بخيت كان يشكو من آلام عينيه، أطباء البحـــيرة لـــم يستطيعوا معه شيئا.

قالوا له "لابد من السفر إلى الإسكندرية".

ليس له فى الإسكندرية سوى ياسين. سأل عنه. دله البعض على قهوة أبو دومة دهش عندما وجده ساقيا فيها.

أخذه ياسين إلى بيت حماته، أسكنه فى ذلك الكـــوخ. حتى جاء توتو ليشاركه فيه، قال ياسين لهما متحسرا :

- لا بأس . إننى أكسب كثيرا من عملى فى القهوة. العوالم تدفع بقشيشا كبيرا.

فالأموال تأتى إليهم دون عناء، لكن زوجتى وحماتى لا يتركان لى شيئا.

قال بخيت ضاحكا :

- دعك من هذا الحديث، فقد تسمعك زكية وأمها ويصنعـــان بك ما تكره.

قال يائسا :

- عندك حق.

* * *

شاع الخبر فى الحى، ولد (ابن نـــاس) تــرك أهلــه الأغنياء الأكابر، وجاء إلى غربال وهو يسكن الآن كوخا من أكواخ تركية.

حليمة العالمة، التى تسكن البيت المجاور لبيت تركية سألت جميلة :

- حقا، ما يقال من أن ولد فى كلية الهندسة، يســـكن بيتكـم الآن؟

- أجل.

- شكله جميل ؟

ضاقت جميلة بحديثها، قالت :

- لا أعرف، عندما ترينه ستعرفين إن كان جميلا أم لا.

عادت حليمة العالمة إلى أمها "الأســـطى القديمـــة"، والتى مازالت تمارس عملها للآن، ولكن فى حفلات صغيرة.

تردى أم حليمة السواد منذ أن مات زوجها - الـــذى كان عازف "قانون" قدر الدنيا. صديقاتـــها يســكن - الآن - شارع الزمزمى، يعملن معظم الليالى، تزورهن أحيانا، يطلبن منها أن تحيى حفلات أصحابها فقراء سيدفعون أقل. والنقطة فيها أقل. يرمين لها الحفلات التى لا يجدن فيها نفعا.

تأخذ معها ابنتها حليمة، وساكنة فى البيـــت ريفيـــة. ليس لها صلة بهذا العمل + تطلب منها أن تغتســـل وتـــأتى معها، تهز وسطها هزتين وتأخذ مبلغا من المــــال لا يــأخذه زوجها فى أسبوع بأكمله.

عارضت المرأة الريفية أول الأمر. لكنها لانت بعــد إغراء أم حليمة لها.

حليمة هو الوحيدة التى عليها الطلى فى الفرقة كلها. أمها تلبس السود كأنها فى "مأتم"، والمرأة الريفية ... كيف تهز وسطها، تدربها أم حليمة علـــى الر... المدعوين.

تغنى حليمة بصوت ليس جميلا، لكنها تحا... اللحن، وترقص بطريقة تثير الرجال.

تردد أمها فرحة بها :

- ستحققين ما عجزت أمك عن تحقيقه.

يبتسم لها الطبال الذى "أعطته" لها صديقاتها، فهو لم يعد يصلح للعمل معهن، كل الراقصات يشكين من دقة طبلته.

* * *

تقف حليمة فى الشرفة، تنتظر ذلك الغريب الذى جاء إلى غربـــال، هاربا من أهله، تحلم بان يأخذها إلـــى قصـــر

أبيه، بعد أن يتصالحا. ويتزوجها ويريحها من غربال وعناء العوالم ورقصهن.

شباب الحارة يعجب بحليمة، يتابعها بنهم، يعجبون بشعرها الصفر المصبوغ وبساقيها العاريتين وهى ترقص.

يذهبون أحيانا إلى حفلات ليس لهم بها صلة. لكى يشاهدوها وهى ترقص. الوحيد الذى يحبها - بحق، هو سيد ابن فايقة.

يذهب أحيانا - مع أمها مجاملة لحليمة، يحيى بعض الحفلات معهما.

رغم هذا تردد أم حليمة له من وقت لآخر :

- دعك من الفن ووجع القلب، عد إلى دكان أبيك الذى سيضيع منك.

لا يرد عليها، يتابع حليمة التى تتزين معظم الوقت أمام المرآة تتركه يتحدث مع امها وتنشغل بأدوات زينتها، ومتابعة المارة من الشرفة.

* * *

يأتى ياسين إلى بخيت وتوتو فى الكوخ حاملا شيشة

- جئت لكى تشاركانى معسلى، زكية تجلس الآن فى "الفرش"، بعد أن أمضى معكما بعض الوقت سأنزل، لتنام فى الدفء، وأبقى أنا بجوار الفرش حتى الصباح سيسرق خضارا وفاكهة يابسة ؟!

قال بخيت :

- أخشى أن تسبب زياراتك لنا بعض الضرر.

ضحك وشد نفسا طويلا :

- حضورى إليكما معناه أن تجلس زكية على الفرش وحدها حتى أعود إليها.

قال توتو :

- جميلة شقيقة زوجتك .....

قال ياسين مقاطعا ومداعبا :

- ماذا يا باشمهندس ؟
- لا شئ.
- مالها جميلة ؟
- أظنها تعمل فى .....
- أجل + تعمل فى فندق.

هى وزكية لم تعملا قط مع العوالم. رغم أن أقارب أمهما كنهم عوالم. ورغم أن المكان ملئ بهن، لم ترد أمهما أن يقاسيا ما قاسته هى.

شد ياسين نفسا من الشيشة، وألح على بخيت بأن يأخذ نفسا مثله.

تذكر توتو أنه قابل جميلة. وهو يدخل البيت حاملا الطعام له ولبخيت.

. كانت تبتسم فى خجل، كأنها تريد أن تقول شيئا.

قبل أن يشرب شايه، أتت ابنته قائلة :

- أمى تنتظرك، تقول أنها تريد أن تنام.

ترك كوب الشاى وحمل شيشته قائلا :

- أنزل إليها قبل أن تأتى - هى - إلينا.

* * *

أحست جميلة به وهو يهبط الدرجات. أمسكت بحقيبة يدها وتظاهرت بقضاء حاجتها في دورة المياه بالدور الأرضي. تعرف هي صوت احتكاك حذائه بدرجات السلم.

خرجت وأسرعت إلى الحارة، جرت حتى وصلت إلى الشارع الكبير، بعيداِ عن أعين النسوة في الحارة، انتظرته بعيدا، وعندما لمحته آتيا تظاهرت بالسير، اقترب منها، سار ناحيتها، ابتسمت له، فقد أحست بأنه سيتركها دون أن يتحدث معها، قال :

- صباح الخير.

ابتسمت في حياء، الكثيرون في الحارة يرغبونها، لكنهم يخافون أمها. هي لا تهتم بهم. لم يرق لها أحد. أحدهم جعل المصوراتي يصوره راكعا، ورافعا يديه بالدعاء. وكتب بين يديه "يا رب جميلة". علقها لدى بقال في الحارة تشتري جميلة منه كل لوازمها.

عندما رأت الصورة ابتسمت ولم تهتم لهذا الشاب، لكن ذلك الغريب شئ آخر. إنه أكثر وسامة من كل شباب الحارة، شعره شديد السواد. ينسدل فوق جبهته العريضة.

أحست بالخوف عندما سألتها حليمة العالمة عنه، حليمة ليست بأجمل منها، لكنها عالمة وتجيد فن الغزل.

سارت بجواره، قال :

- إلى أين ؟

لم يكمل الحديث، لعله يريد أن ينهيه. لكنها لن تسمح له.

- وأنت ؟

- سأشترى الإفطار.

أحست بأنه يسرع الخطى. خطواتـــه أطـــول مـــن خطواتها، ساقاه طويلتان، لهذا جرت بجواره :

- لماذا تسرع ؟

توقف، ابتسم في حياء :

- لا شئ.

- أعمل فى فندق بمحطة الرمل.

- أخبرنى ياسين بذلك.

أحست بالفرح لأن الحديث يدور بينه وبيـــن ياســـين عنها أو لعله - هو - الذى سأله عنها وعن عملها.

وصلا إلى نهاية الشارع :

- ستشترى الجريدة ؟

- نعم.

- فى كل يوم أراك تشتريها، فى أى كلية أنت ؟

- الهندسة.

خشى أن تلج من حديثها هذا إلى موضوع خلافه مع أبيه. وعن سبب سكنه فى ذلك الكوخ، فقال مسرعا :

- ستتأخرين عن عملك.

· مدت يدها، لمسها فى خوف، لا يدرى من أى شـــئ يخاف. إنه بعيد الآن عن البيت. وعن أمها النائمة، والتى لا تصحو ألا قرب الظهر بسبب سهرها الدائم أمام بيتها.

أسرعت الخطى أمامه. وقف للحظات يتابعها وهـــى تسير.

إنها جميلة حقا، وملابسهما حديثة، تختلف كثيرا عن معظم سكان الحارة.

(٣)

منذ وقت طويل لم يقض ياسين ليلته فى شقته، فعليه أن يحرس "الفرش" طوال الليل.

يعود من قهوة أبو دومة بعد العصر. يرتاح قليلا فى شقتـــه. ثم يبدأ "ورديته"، وفى كثير مـــن الأحيـــان يتنـــاول غـــداءه على الفرش فى الشارع ولا يصعد إلى الشقة فى هذا ليوم.

فى الصباح، تأتيه زكية بالإفطار. يتناولــــه داخـــل عشة" بعجلة، حتى لا يغضب أبو دومة عليه.

تبقى زكية مكانه، تزن الخضار والفاكهة للمشـــترين خذ النقود منهم (تفعل هذا حتى لو كان ياســـين موجـــودا وقتذاك).

فى الليل، تأخذ أطفالها وتصعد بهم إلى شقتها. ويبقى هو وحده.

اعترض أول الأمر، قال :

– الفرش لا يستحق السهر فوقه. نفـــرش عليـــه الأجولـــة الفارغة ونربطه بالحبال.

بكت زكية وصرخت. حتى جاءت أمها، سبته وذكرته بأنه جاء إليهم لا يملك سوى طبلته التى هشمتها فوق رأسه، فلم يعد يملك شيئا.

وانتهت الواقعة بأن سهر ياسين فوق "الفرش" كما أرادت زكية.

عندما يريدها فى النهار، تتسحب من بين الجالسات، أمام باب البيت، وتصعد إلى شقتها، بعد أن توصى أمها هامسة بالاهتمام بالفرش والأطفال. تنظر تركية حولها فلا تجد ياسين هو الآخر. فتفهم ما حدث. تردد ساخرة :

- إصعدى إليه.

تصعد، تجده فى انتظارها.

تعود زكية بعد أن تستحم وتمشط شعرها، تتغامز النسوة عندما يرينها هكذا.

فى الشتاء، مهمة ياسين أصعب، فالهواء البارد يأتيه من كل جانب. رغم أن الشرفة تقيه رذاذ المطر. لكن الهواء البارد لا يحجبه عنه شىء.

يضع قطع الخشب فى "ماجور" كبير، ويشعل النار ليتدفأ. تدمع عيناه، يحمر جسده كله. لكن النار لا تفلح فى إبعاد البرد عنه.

يقوم أحيانا من نومه. فيجد يديه متورمتين، وكذلك وجهه. يضطر أن يدعك وجهه ويديه بالجاز ليدفئهما.

قبل أن تنجب زكية أطفاله الأربعة كان يفكر فى الهرب من ذلك العناء. أن يعود إلى قرى البحيرة. يبحث عن الغوازى، يدق لهن طبلته. ليرقصن. لكنه خاف الشماتة

هناك. فبعد أن منى نفسه بالمجد الكبير أمامهم، يعود إليهم دون شئ.

الآن، أطفاله يجعلونه قابعا فى مكانه. راضيا بأى شئ من أجلهم. يسمع من خلال نافذة فايقة الملاصقة لفراشه، صوت تأوهاتها.

هريدى زوجها يصرخ فيها لتصمت، وهى تعوى كذئب. تأوهاتها كصوت نحيبها الدائم إذا ما تكلمت مع أحد فى المنزل.

تسبهما تركية وزكية فتنتحب وتتظاهر بالبكاء.

ملعون أبو زكية. وملعون اليوم الذى تركت فيه قرى البحيرة وأتيت لهذا العذاب. ينتظر ياسين أن تكف المرأة عن ذلك. لكنها لا تكف.

لم يستطع ياسين أن يتمالك نفسه، ترك الفرش - كما هو - وأسرع إلى الدرج، صعده عدوا، ودق باب زكية. قالت :

- من ؟

- ياسين. اسرعى بفتح الباب قبل أن يستيقظ الأطفال.

فتحت الباب فى غضب :

- ما الذى جعلك تترك الفرش ؟!

أغلق الباب خلفه وهم إليها.

- اعقل يا رجل، وانزل إلى الفرش.

- المرأة تتأوه طوال الليل وأنا لا أستطيع الاحتمال.

- داهية تأخذك وتأخذها. انزل إلى الفرش قبل أن أصرخ وأوقظ كل من فى البيت.

بصق عليها وهبط لاعنا كل شئ بصوت خافت.

* * *

في الصباح استيقظ البيت كله على صوت زكية وهى تصرخ وتشد فايقة من شعرها.

– يا امرأة يا عجوز، كفاك.

– ماذا حدث يا زكية ؟

– قلت لك من قبل "ابعدى سريرك عن النافذة" صوت تأوهاتك تجعل الرجل يترك الفرش ويصعد إلى.

بكت فايقة ثانية. وقالت للواقفين حولها :

– تعالوا لتروا بأنفسكم، إن كان السرير بعيدا عن النافذة أم لا.

حركت زكية يدها بحركة بذيئة وقالت :

– حتى لو كان السرير فى الحجرة البعيدة، فسيسمع المارة صوتك من الشارع.

وحاولت أن تشد شعرها ثانية.

– مادمت تفعلين هذا وأنت تعلمين أن رجلا ينام بجوارك، فلابد أنك تريدينه.

صاحت فاقية باكية :

– أنا أريد ياسين ؟!

تدخلت تركية قائلة لابنتها :

–كفى يا زكية. زوجك كذاب. أراد أن يصعد إليك. فتعلل بذلك

تدخل فايقة شقتها، تمسح دموعها. وتصلح مكياجها. تضع قطعتين من القماش فوق ثدييها الصغيرين

لترفعهما. ولتكشف عما تحت إبطيها العاريين. هريدى - زوجها - كان يعمل لديها "رفا". تشترى - هى - الملابس القديمة من تجار الروبابيكيا. عمالها يغسلونها ويرتقون الممزق ويكوونها.جسد هريدى قوى، غير كل عمالها الآخرين.

بعد أن مات زوجها - والد سيد - ترك لها دكانه هذا. أحست بعده بالضياع. وبحاجتها إلى الرجل. هريدى متزوج ولديه أطفال كثيرون. لكنه قوى .. يكشف عن صدره العريض وهو يرف الملابس، شعر صدره ينفذ من فانلته الداخلية التى يعمل بها، تصرخ هى فى عمالها كلهم إلا هو.

هو فى حاجة دائمة للمال. حاجات أولاده وزوجته لا تنتهى. كما أنه لا ينسى نفسه. يسهر فى الحفلات التى تقام فى السوق. يدخن الحشيش، ويشرب البيرة مثله مثل التجار الكبار أصحاب المحلات.

يقترض من المعلمة (كما كان يناديها قبل أن يتزوجها).

تحدثه هامسة وبود :

- الدين أصبح ثقيلا عليك.
- رقبتى سدادة يا معلمة.

أحس بأنها تريده. وكذلك أحس باقى العمال. فكر طويلا فى هذا. اعتقد أن الموضوع سينتهى بأن تطلبه لقضاء بعض الأوقات معها. وتتغاضى بذلك عن دينه لها، ثم تعطيه من مالها ما يشاء.

لكن فايقة رغم حاجتها الشديدة إلى الجنس. لم تــزن أبدا.

امتدت يده لجسدها وهو معها فى المخزن، يبحثـــان عن الملابس التى فى حاجة إلى رفا.

فضربته فوق يده غاضبة :

- ابعد يدك، كسر يدك.

أحس بالخوف منها :

- لماذا يا معلمة. وعيناك كلها رغبة لى.

- آه فى الحلال إنما "الخلبصة" لا.

تزوجها بعد أيام. وتغير الحال بعد ذلك. المعلمـــة التـــى تصرخ فى العمال تبكى الآن وتنوح تحـــت جســده. أحس بقوته. سبها. غضبت. لكن عندمـــا جــاء المســاء مبتسمة متوددة جاءته مادام زوجها فى شئ يعيب.

وأصبح معروفا لدى الجميع أن فايقة ترتعـــش مـــن هريدى، ولا يناديها إلا سابا. وتأتيه صاغرة باكية.

يضربها أحيانا. فيتدخل ابنها سيد، يتشاجران معـــا، فلا تملك هى إلا البكاء من أجلهما.

تصمم على الطلاق، ويطلقها. لكن الدكان يجمعـــهما معا. فهريدى هو المعلم الآن. يجلس على المكتـــب، يشـــد أنفاســا من الشيشة، يحاسب تجار الروبابيكيا. ويأمر العمال، وتعود الأمور كما كانت بينهما.

يرددون فى الحارة حكايات كثيرة عن فايقة، يقولون أنها لا تنتشى إلا إذا وضع هريدى "الشطة" فى جسدها. وإن

حاجتها للجنس حالة مرضية، أنفقت من أموالها الكثير لتبرأ منها دون طائل.

* * *

يأتي سيد، تنتظره زكية أمام "الفرش". تشكو له أمه. ثم تقول :

- إنها تريد أن تكتب لهريدى نصيبا من الدكان، فقد سمعته يضربها فى إحدى الليالى، ولما سألتها عن ذلك. قالت أنه يلح عليها - منذ أن تزوجها - لأن تكتب له نصيبا من الدكان.

يدخل سيد غاضبا. لم يعد يحترمها كما كان، قبل أن تتزوج هريدى، يسبها - الآن - يضربها مثله تماما، ولكى تبعده عنها تعطيه من المال ما يشاء. تقول للنسوة باكية :

- أخشى أن يأتى هريدى فيجده هكذا، فيتشاجران.

شدها سيد إليه :

- ما الذى حدث بينك وبين زكية ؟

تنتحب قبل أن يقترب منها :

- لم يحدث شئ - كانت تعاتبنى لأن صوت المذياع يزعج زوجها ياسين، وهو نائم على "الفرش".

- صوت المذياع أم صوتك أنت ؟

- كلا. أسمعتنى ؟!

ويصرخ سيد، الذى ينام فى "الطرقة" بعيدا عنهما :

- أجل، أسمعك كثيرا، ولهذا لن أدخل زوجك البيت ثانية.

- لا شأن لك به.

فتحت منديلها وأخرجت نقودا :

- خذ يا سيد.

– لن آخذ شيئا، لقد علمت أنك تنوين أن تعطيه نصيبا من الدكان.

صرخت وضربت على صدرها :

– كيف يا سيد، والدكان للآن باسم أبيك. كما أنك أنت الذى تركت الدكان، وعملت سائقا للأتوبيس.

– مللت تصرفاتك، الناس تحدثنى فى هذا دون حياء.

– ما الذى تستحى منه، إنه زوجى على سنة الله ورسوله.

– ولو، لن أدخله البيت ثانية.

خرج سيد إلى الشراع، وضع مطواه داخل جوربه. وجلس بجوار ياسين. لم تحدثه زكية عن أمه ثانية. وهو لم يتحدث فى هذا. عندما رأى هريدى آتيا أسرع إليه، قالت زكية صارخة :

– الحق يا ياسين.

كانت تركية أسرع من ياسين. أمسكت المطواه من يد سيد :

– اعقل يا ولد، إنه زوج أمك.

صاح هريدى :

– تريد أن تقتلنى يا " ..... ".

أسرع سيد إليه ثانية، خمش بأظفاره وجهه. سيد نحيف. وهريدى قوى. لكنه لم يستطع الإمساك به، كلما حاول، أبعده الناس عنه. قال ياسين :

– ماذا تريد يا سيد منه ؟

– ألا يدخل البيت ثانية.

أتى هريدى بفمه وأنفه فعلا قبيحا. وسب ولعن. لكن سيد أصر على موقفه، خرجت فايقة باكية، أمسكت بهريدى :

- لا تلتفت إليه، لا تخرب بيتك بنفسك.

لكن هريدى صفعها فى عنف وسبها، أسرع سيد إليه بمطواه. حاول هريدى أن يأخذها منه، فجرحت يده.

قالت تركية له :

- أنت رجل ابن كذا وكذا. ما ذنبها هى لتضربها.

- سأطلقها من أجل ابنها.

بكت فايقة طويلا. لكن هريدى ذهب إلى المأذون مع ياسين وزكية وبعض أهالى الحارة وطلقها.

عاد سيد إلى شقته سعيدا. مل حديث أصدقائه عن أمه. يمازحونه ذاكرين حاجتها الدائمة للرجل. وضعفها أمام هريدى. وضعفه هو أيضا. لأنه يسمح له بان يعاملها هكذا وأمامه.

كانت فايقة مريضة. تربط الإيشارب على جبهتها وتتحدث بصوت مبحوح خافت. لم يحدثها سيد، ولم تحدثه هى أيضا. نظرت إليه فى عتاب. وأقسمت - فى نفسها - ألا تعطيه مليما آخر.

* * *

كان سيد يعمل "رفا" فى دكان أبيه، قبل أن يموت. لم يكن يقدر على تدخين سيجارة أمامه، ولا ان يعزف على نايه فى شقتهم إذا كان موجودا.

كان يهرب إلى شقة تركية، يعزف فيها بنايه. لكن بعد أن مات، ترك سيد الدكان، تعلم قيادة السيارات، وعمل فى الأتوبيس، بكت أمه وقتها. قال هو :

- لا أستطيع أن أجلس بالساعات أرتق الملابس المهترئة.

بعد أن تزوجت هريدى، كان يقضى وقته نافخاً فى نايه. فيضطر هريدى ان يحمل ملابسه ويذهب إلى زوجته الأولى. وتضطر فايقة أن تعطى سيد مالا لينفخ فى نايه بعيداً.

وجه سيد حسن، لكن جسده ضامر كأمه. صوته ليس جميلا. لكنه حاذق فى العزف على العود والناى (سماعى).

أسس سيد الفرقة، ضم إليها صبحى السورى، الذى سافر إلى سوريا أيام الوحدة واشترى ملابس من هناك لبيعها فى سوق سوريا بالمنشية.

وعبده فاكهة عازف الأكورديون الذى كان يمتلك محلا للفاكهة بسوق باب عمر باشا لكنه، بسبب حبه للفن والأكورديون أفلس. كان يغلق الدكان بالأسبوع والأكثر. ويسافر مع الفرق الغنائية، ويعود، فيجد الفاكهة قد فسدت.

مازالوا يحيون حفلات صغيرة : عيد ميلاد. ختان. الخ. لم يبدأوا العمل الفعلى كسائر الفرق المحترفة. لكن لا بأس. فهم يحيون الحفلات كما ينبغى أن تكون. ويشهد لهم كل الحاضرين بالجودة.

يحلم سيد بحليمة العالمة. يذهب إلى بيتها. يعزف على نايه أمام أمها - العالمة القديمة - تضحك المرأة ساخرة :

- دعك يا سيد من هذه المهنة. اهتم بدكان أبيك. تستطيع أن تأكل منه الشهد.

في غياب الأم، يحدث حليمة حالما. ستكون لي فرقة كبيرة. لم تحدث من قبل،

بعد أن يخرج تقول لها الأم :

- سيد يحبك.

تقول حليمة وهي تبحث عن أدوات زينتها :

- أعرف، لكنني أحلم برجل غني. يعوض صبري خيرا.

لم يحيي سيد حفلا دون حليمة. الفرقة كلها تعرف مدى حبه لها. فهي في الحفلات تهتم به. تمازحه وتجلس بجواره. حتى يدفع لها مبلغا كبيرا من النقطة.

(٤)

يومان منذ أن صفعت بسيمة وتركت البيت، النقـــود التى أتيت بها تلاشت. لم يتبق منها شئ. كمـــا أن الحـظ يعاندك. فلم يحى سيد حفلا واحدا منذ أن جئت.

أحس سيد بك، فجاء إليك بالأمس. كان سعيدا، قال :

– ذهب هريدى ولن يعود. يمكنك أن تأتى لتعيش معى فـــى الشقة.

لم توافق على ذلك، فأمه لن تسعد بهذا، ولـــو حتـــى قبلت خوفا من ابنها. فلن تكون – أنت – سعيدا، فهى لاشـك ستكون كارهة لك.

كان بخيت يغمغم وهو مستلق فوق الأرض. واضعا ساقا فوق ساق.

دس سيد فى يدك مبلغا من المال، أردت أن تصيـــح، أشار إلى بخيت فى صمت.

قبلت النقود. وأنت كاره لنفسك ولبسيمة.

قال سيد لبخيت :

– صوتك حسن.

مصمص شفتيه حزينا وقال :

– لكن البخت ضائع.

البقاء فى مكان واحد مع ضرير عناء، خاصة لو كان فى أولـــه، مثل حالة بخيت. فهو لم يعتــد أن يعمــل شيئــا وحده. لابد من مساعدته فى ارتداء ملابسه، وأن تشعل لـــه الوابور. وتهبط به إلى دورة المياه، وتنتظره حتى تعود به.

وأنت تشعل الوابور تتذكر بســيمة. التـــى - رغــم كرهها لك - لم تجعلك تعمل شيئا فى البيت، إذا ما حاولت أن تعمل شيئا على "البوتجاز" تصيح غاضبة :

- هل قلت لى ورفضت ؟!

جاء بخيت من بلده ليعالج عينيه. لكن الطبيب أخـــذ يؤجل موعد العملية، كلما ذهب إليه.

لو حكيت لأصدقائك - فى الكلية - عن هذه التجربـــة التى تمر بها الآن، سيظنونك تؤلف. يجب أن تكتب عن هذا. لابد أن تشترى ورقا فى الغد لتكتب.

كان أبوك يسعد عندما يقرأ خواطرك، يقول لأمك سعيدا :

- تيمور سيكون له مستقبل باهر. سيكون أديباً.

وتعارضه أمك قائلة :

- بل سيكون موسيقيا. إنه يعزف على كمانه بمعجزة.

ولم يتحقق شئ مما قالاه. لا أديـــب ولا موســيقى. ولا حتى مهندس.

تحس أحيانا - أنك ستموت فى أحد الشوارع الكبــيرة فى الإسكندرية، ممزق الثياب، أشعث الشعر.

كنت تقف فى "حصة" الإنشاء، تتحدث عن الموضوع المحدد على "السبورة" تقول أقوالا يسعد المدرس لها يطلـــب منك من وقت لآخر أن تقف وتتحدث.

يسألك الزملاء - ممن أين يأتيك هذا الكلام ؟ يرد البعض :
- لأن والده يعمل فى المكتبات العامة. يعطيه كتبا كثيرة ليقرأها.

نعم، كان أبوك يقرأ كتبا كثيرة قبل أن يتزوجها. يسهر فى الليل فتنسحب أمك إلى حجرة نومها دون إحداث صوت وتبقى - أنت - بجواره يغطى صلعته فى الشتاء بطاقية تصنعها أمك له من الصوف.

دعاك تيمورا، لأن أصول أمك ترجع إلى الأتراك، وحبا للأسرة التيمورية الأدبية التى يعجب بها كثيرا.

كان موظفا فى مكتبة البلدية، يحلم بان يحصل على الدكتوراه، ويعمل أستاذا فى الجامعة. وحصل بالفعل على الماجستير. كان موضوعه (أثر الأسرة التيمورية على الأدب العربى الحديث)، لكن قبل أن يقطع شوطا كبيرا فى الدكتوراه، ماتت أمك وتزوج بسيمة.

ضاق به المشرف على الرسالة. وكان يزوره كثيرا فى مكتبة البلدية. قابلك - هذا المشرف - يوما، قال لك :
- قل لأبيك أن يصرف نظر عن هذا الموضوع. مادام لا يجد الوقت حتى لزيارتى فى الكلية.

وصل أبوك الآن إلى وظيفة مدير المكتبة، واكتفى بهذا. حتى كتبه الأدبية لم يعد يلمسها. أنت الذى ترفع التراب عنها من وقت لآخر. وتقرأ بعضها.

هبط سيد إلى شقته بعد ان أصررت على ألا تذهب معه. وبخيت مازال يغمغم. لا تدرى إن كان سعيدا أم أن الخوف من العملية يجعله يفعل هذا. قلت له :

- أواثق أنت، إنهم سيجرونها لك فى الغد ؟
ضحك قائلا :
- أجل، لقد ذهبت منذ أسبوع وقالوا "فى الأسبوع القادم".
- سأذهب معك.

* * *

خرجت من باب البيت ممسكا بيد بخيت، لـــم تكــن تركية موجودة أمام البيت ولا ابنتها جميلة. لكن زكية نظرت إليكما، ثم عادت ثانية إلى ميزانها وما كانت تزنه.
قال بخيت :
- سأتعبك يا باشمهندس.
النسوة ينظرن إليكما فى دهشة. سيد لم يســـتطع أن يذهــب معكما. لأن ورديته تبدأ فـــى الصبــاح. وكذلــك ياسين. حاول أن يستأذن من "أبو دومـــة" فصــاحت زكيـــة غاضبة :
- إذا استأذنت من القهوة. سأجعلك تجلس على "الفرش".
كرر بخيت كلمة هذه كثيرا "سأتعبك يا باشمهندس".
مازال بخيت يرتدى الملابس البلدية، التى أتى بها من بلدته. آه لو رآك أبوك وأنت تمسكه هكذا، أو بسيمة. أو أى قريب أو صديق. ماذا سيقولون ؟
وأنت سائر بجواره. كنت تردد فى نفسك ما ستكتبه عن هذه التجربة.
كولون ولسون كان يعمل ساقيا فى المقاهى والبارات. تلك التجارب أعطته مادة جديدة للكتابة. نعم ستعود إلى أبيك

مهما طال الوقت. لكنك لو بقيت فى شقته مدى الحيـــاة مـــا كنت رأيت ما تراه الآن.

قال بخيت للطبيب :

- نقودى نفدت، وبلادى بعيدة. اكسب فى ثواب يا بك.

أجلسه التومرجى على المقعد. مد الطبيب أصابعـــه، داعب عينيه، سأله :

- تشعر بالآم فى عينيك الآن ؟

- كلا.

قال فى صوت هادئ :

- حالتك متأخرة يا بنى.

- ماذا يابك ؟

- لله يتولاك. العملية لن تضيف جديدا.

لم يتحدث بخيت. لكن منظره وهو منكـــس رأســـه. ينظر ناحية صوت الطبيب. جعلك تبكى. صاح الطبيب بك:

- أجننت، يجب أن تساعده.

عدت ثانية، كنت تجره جرا. لم يتحـــدث. ويـــدك كانت أكثر تشبثا بذراعه.

* * *

أغلقت الكوخ خلفكما. وسرت أنت بعيدا عنه.

أى تجربة تلك التى تمر بها الآن. كانت ثقوب الكوخ تدخل أشعة الشمس كخيوط متناثرة، تتجمع فوق أرض الكوخ الأسمنتية.

شعرت بالرهبة، وبخيت ينكمش جسده ويتداخل، لـــم يبك.

مر بك كل ما حدث منذ أن تركت البيت، كان حلمـــا ثقيلا. كابوسا.

قال بخيت :

- أود أن أنام.

لم تجبه، سمعت ما قال. لكنك لم تفهم أول الأمـــر. كما لو كان يتحدث بلغة لا تعرفها. كنت تحب أباك كثـــيرا. وكان يكثر من الحديث معك؛ خاصة فى الشهور التى تلـــت موت أمك. إلى أن جاءت بسيمة إلى البيت.

- يا باشمهندس، أتسمعنى ؟

- نعم.

- لماذا أنت بعيد ؟

- إننى قريب منك. ها هى يدى.

- اجلس بجوارى، أحـــس أن جســدى غــير قــادر علــى الانتصاب.

بكيت ثانية، رغم انك كنت كبيرا عندما ماتت أمـــك، إلا إنك لم تبكها كثيرا .. لعلك لم تكن تقدر - وقتها - مـــدى حاجتك إليها.

بكيت بصوت مرتفع :

- لا تبك يا باشمهندس، هذا أمر الله.

تمنيت أن تسرع، وتسير فى الحـــارة التـــى ســعدت عندما رأيتها لأول مرة، تهرب، تذهب إلى بسيمة، تقبل يدها، تعتذر لها، تطلب منها ان تفعل بك ما تريد. لكن - تـــتركك الآن لكى تتمدد فوق فراشك. وتغطى وجهك بغطائك وتنام.

لو فعلت بك - هى وأبوك - ما فعلا. لن تترك الشقة ثانية وتهرب.

- عد إلى أهلك يا باشمهندس، أبوك. لاشك أن يبحث عنك.

- سأعود، وأنت ؟

- لن أعود ثانية. لن أجد هناك ما أريد. العميان فى بلادنا يقرأون القرآن فى الجبانات، أو يتلقون الإحسان.

سمعت - أنت - صوت جميلة بجوار الكوخ المغلق. كانت تضحك. وتتحدث بصوت مرتفع.

ظللت هكذا مدة طويلة. ولكن همومك كانت أكبر. فلم تهتم بها.

لم تخرج من الكوخ. ولم تتعذب فى حياتك كما تعذبت فى تلك الليلة. أصوات سكان الأكواخ الأخرى تأتى إليك وأنت نائم، كأنها أصوات لصوص أو قتلة يريدون قتلك. فى الصباح، كان بخيت نائما فوق أرض الكوخ الإسمنتية. وبقايا دموع فوق وجهه وعينيه.

ارتديت ملابسك وخرجت.

* * *

- صعدت السطح من أجلك بالأمس.

- سمعت صوتك.

- لماذا لم تفتح الباب لأراك ؟

- كنت حزينا من أجل بخيت.

- ماذا به ؟

- أخبره الطبيب أن العملية لن تجدى.

لم تجد جميلة قولا، سارت صامتة بجوارك. لم تكن تسرع كالمرة السابقة.

- سيعود لبلده ؟

- لا.

مدت يدها لك، قابلتها بيد جامدة.

اشتريت طعاما لك ولبخيت، لم تشتر الجريدة التى تشتريها كل صباح.

لم تجد رغبة فى شراء شئ.

* * *

تركت قرى البحيرة التى عرفتنى كمنشد صوته حسن. ياسين يدق الطبلة خلفى والغازية ترقص أمامى. كنت أراها. نعم. رغم آلام عينى الدائم كنت أرى.

أعود مع ياسين قرب الفجر، أضع يدى فى ذراعه ليعيننى على السير.

منذ أن كنت طفلا وأنا أعاني من آلام عينى. أدعكهما بأصابعى كثيرا حتى يحمرا.

ذهبت إلى طبيب المستشفى أعطانى سائلا أزرق. وضعت منه فى عينى. فازداد الألم.

كنت أشعر وأنا أغنى أن أضواء الكلوبات الكثيرة تضايقنى، وتدمع عينى.

فى المرات الأخيرة. لم أستطع أن أكمل ليلة واحدة. توقفت عن الغناء فجأة، أشرت إلى الفرقة الموسيقية بيدى لينهوا الغناء. وأسرعت إلى خلف المسرح كنت أحس آلاما شديدة. جاء إلى بعض أفراد الفرقة، وبعض المدعوين.

بكيت من شدة الألم. قالوا : إن لم تتخذ موقفـــا، فســتضيع عيناك تماما وتصبح أعمى.

فكرت فى ياسين الذى تركنا، لأننا أقل من قدراته فى الدق على الطبلة.

كان صديقـــى. إذا ما عمل فى فرقـــة." قـــال لـــهم عنى. وأثنى لى طريقتى فى الإنشاد. وأنا كنت أرد له هـــذا، كل فرقة أعمل بها، أتحدث عنـــه بـــالخير. ســافرت إلـــى الإسكندرية. وبحثت عنه فى كازينوهات الكورنيش "طبـــال أسمر يرتدى الملابس البلدية".

قال واحد ساخرا منى :

– لو وصل حقا إلى كازينوهات البحر، سيغير ملابسه البلدية.

وجدته أخيرا ساقيا فى قهوة أبو دومة.

* * *

عندما قابلت الباشمهندس فى كوخى، ضحكت بعد أن حكى لى حكايته. قلت :

– وجودك هنا مثل وجودى، فكلانا سيعود من حيــث جـــاء. أنت إلى بيتك وأنا إلى قريتى بعد إجراء العملية.

أحسست أننى أعرفه منذ وقت طويل، ضحكت :

– لكنك ستتعب معى، فأنت ابن ناس ولـــم تتعــود العيــش وحدك، وأنا فى حاجة لمن يرعانى.

– سأرعاك، وأفعل لك ما تشاء.

أمسك الوابور، ودفع الكباس داخله. أخذت أرشــــده من مكانى – على كيفية إشعاله حتى أشعله.

قلت له :

- ضعه خارج الكوخ، حتى لا يضايقنا بدخانه، وعد به بعد أن تنتظم ناره

جعلته يضع براد الشاى فوقه. غنيت أغانى التى كنت أغنيها فى الأفراح، وللعائدين من الحج. ورد هو على، كان سعيدا كأنه يقضى رحلة فى بلدة بعيدة، أو فسحة.

* * *

ياسين هذا كالشريك المخالف، عندما لا أريده يأتى. ولا يأتى إذا ما احتجت إليه.

لم يزرنى ليلة أمس، لعله يظننى مازلت فى المستشفى؛ ظللت أنتظره بلهفة. كلما سمعت صوت احتكاك أقدام فوق الدرج، ظننته هو.

وعندما أيقنت أنه لن يأتى تلك الليلة وددت لو هبطت إليه فى عشته، لأتحدث معه. لكننى خفت من لسان زوجته وحماته.

ياسين وحده الذى سيحل مشكلتى.

نمت فوق الأرض اليابسة، أحسست بصلابتها تحت جنبى. ونار مشتعلة فى صدرى ووجهى كله.

لن أعود ثانية لقرى البحيرة، ولن أستطيع أن أعيش من الحفلات التى يحييها سيد، فهو يحيى حفلا كل عدة شهور. سأجعل ياسين يبحث لى عن عمل - حتى لو كان بعيدا عن الغناء.

(٥)

كان بخيت صامتا طوال الوقت - عيناه المفتوحتان - تتجهان ناحية السقف قال :

- يا باشمهندس.

أسرعت إليه، قال :

- أحس بالاختناق، تعال نذهب إلى قهوة أبو دومة. لنتقابل مع ياسين وباقى الفرقة.

لم أكن مستعدا للخروج، ما رأيته جعلنى تعيسا. أود أن أغمض عينى وأفكر فيما حدث، أو أن أبكى، فربما ترتاح نفسى قليلا.

لكن حالة بخيت تجعلنى أقبل أى شئ يريده.

قلت له فى تكاسل :

- أجل، سأذهب معك.

وجدت صعوبة فى القيام. لمحت وجهى فى مرآة مكسورة، معلقة فى مسمار بالصفيح (لاشك أن أصحابها قد تركوها قبل أن يخلوا الكوخ. قبل أن يسكنه بخيت) كان

وجهى مكدودا، ولحيتى متناثرة، وقيمصى متسخا. أردت أن أقول لبخيت "لن أستطيع السير فى الشارع هكذا".

لكن وجه الرجل الشديد الحزن جعلنى ارتدى ملابسى دون اعتراض.

أمسكت بيده وسرت، تابعتنى تركية وأنا أمسك ذراعه هابطا الدرج. لم يعجبها أن أقوم بهذا الدور مع رجل ضرير مسكين.

لمت ساقيها لتسمح لنا بالمرور بجانبها.

طوال الطريق لم نتكلم سوى كلمات قليلـــة. يقــول بخيت كلمة، وأرد عليه بكلمة، أو لا أرد.

أجلسته فوق مقعد بقهوة أبو دومة. وذهبت لأبحـــث عن ياسين.

عندما رآنى جاء بصينيته الفارغة :

- أهلا باشمهندس، هل زرت بخيت فى المستشفى.
- إنه لم يحجز هو معى فى الخارج.

أسرع إليه، قال :

- ماذا حدث ؟

شددته من ذراعه، حتى لا يذهب إلى بخيت ويحدثـــه قبل أن يعلم أنه عمى :

- انتظر، لقد قال الطبيب أن عينيه فسدتا تماما.

توقف عن السير، صدمته بكلماتى تلك.

ذهب إليه بخطوات متئدة، أمسك يد بخيت الموضوعة فوق المائدة :

- بخيت ؟

عندما سمع صوته ابتسم :

- ياسين. إننى أنتظرك.

- لا تؤاخذنى يا صديقى. كنت سأذهب إلى المستشفى قبل أن أعود إلى البيت، لكن .....

لم يكمل ياسين. وبخيت هو الآخر - غير الحديث - قال :

- لن أعود للبلدة يا ياسين. سأظل هنا معك.

نظر ياسين إلى وقال :

- أهلا بك يا بخيت.

- أريد أن أعمل أى عمل، لقد كنت طبالا. وأنت الآن ساق فى قهوة.

- لا تهتم بذلك.

جاء سيد. ترك ياسين مقعده وذهب ليلبى طلبات الزبائن.

قلت لسيد، مشيرا لعينى بخيت :

- بخيت سيبقى معنا. لن يعود إلى بلده.

قال سيد شاردا :

- أهلا بك.

قال بخيت :

- أريد أن أعمل يا أسطى سيد.

قلت :

- منذ أن تركت بيت أبى وأنا بلا عمل. لم نحيى ليلة واحدة.

- فى الغد سنعمل، سنحيى حفلا فى حينا.

جاء صبحي السوري بعد ذلك، ثـــم جــاء الحكــش (عضو الفرقة الجديد) والذى "جاء" لهم بحفل الغد.

قلت لسيد، محاولا أن أخرجه شروده :

- نريد أن نسمع بخيت الآن.

وضع الحكش ساقا فوق ساق، كان أكثر الموجوديـــن أناقة. يرتدى بليزر بصفين مـــن الأزرار النحاسـية، قــال بخيت:

- يوجد عود ؟

ابتسم الحكش لصبحى فى استخفاف، نادى سيد على ياسين، جاءه مسرعا :

- أريد عود للحظات قصيرة.

أسرع ياسين إلى باب القهوة. تذكرت كمانى الـــذى تركته فى البيت. **شعرت بحنين إليه، قلت :**

- وأنا أيضا فى حاجة إلى كمان لربع ساعة فقـــط، اشتقــت **إليه.**

ابتسم سيد ونادى ثانية :

- ياسين.

عاد ياسين إليه :

- وآلة كمان أيضا.

أسرع ياسين إلى القهوة. تحدث سيد مع الحكش فى موضوع حفل الغد فالحكش هو الذى يعد كل شئ مع أصحاب الحفل الذين يتصلون به بصلة قرابة.

كان يردد من وقت لآخر :

- كله تمام يا ريس.

عاد ياسين حاملا عودا وكمانا، كان يحملهما كأنه يحمل طلبات القهوة وضعهما على المائدة وسار، ليلبى طلبا آخر. أمسكت بالعود. وضعته فوق ساقى بخيت. وأمسكت بآلة الكمان بحنان. وضعتها فوق ساقى.

ضم بخيت العود لجسده، وعزف، ثم غنى. اجتمع معظم الجلوس فوق القهوة. كان صوته جميلا وحزينا. أحسست بأنه ازداد جمالا وحزنا عن كل مرة سمعته فيها.

قال سيد متأثرا :

- الله يفتح عليك.

قال صبحى السورى لسيد :

- إننى أرتاحُ لصوته كثيرا.

مط الحكش شفتيه، ورفع ساقه الأخرى. ووضعها فوق الأخرى بعصبية. أمسكت الكمان. وضعته فوق كتفى وأسندته بذقنى التى لم تحلق منذ أن أتيت إلى غربال. وداعبت الأوتار بالقوس. كنت أعزف وكأننى فى حجرتى، نسيت كل من حولى. تذكرت أيام الدراسة، عندما كنت أقف بين شجرتين فى فناء المدرسة الكبير وأعزف وعدد كبير من المدرسين يجلسون فى وقت الراحة يسمعوننى.

تأوه بخيت منتشيا. وابتسم صبحى السورى لسيد، وأعاد الحكش ساقيه لوضعهما السابق ونظر بعيدا.

قال بخيت بعد ان أتقنت اللحن :

- فنان يا باشمهندس.

قال سيد لبخيت :

- مادمت ستعمل معنا ونويت أن تبقى في الإسكندرية، فلابد أن تغير ملابسك البلدية.

أومأ برأسه ولم يجب.

*   *   *

فوجئت فايقة بهما أمامها. تعرف هى توتو. لكنها لم تر بخيت من قبل. فهى تقضى النهار كله في الدكان، ولا تأتى إلى البيت إلا مساء.

- تعال يا باشمهندس، تفضل.

- أريد سيد.

لا تزال - هى - غاضبة من سيد، لأنه أفسد حياتها مع هريدى، قالت فى ضجر :

- لعله فى بيت حليمة العالمة.

قال توتو :

- أين بيتها، إننى لا أعرفه.

- بعد ثلاثة بيوت، تسكن الدول الأول العلوى.

أسرع توتو إلى الخارج. نظرت فايقة فى ضيق إلى بخيت. ثم اكتشف بعد لحظات أنه ضرير.

عاد توتو مبتسما :

- وجدته .....

قبل أن يكمل حديثه دخل سيد، قال لأمه :

- أريد بذلتين.

- الدكان حاله لا يسر عدوا ولا حبيبا، منذ أن تشاجرت - أنت - مع هريدى وهو يعاكسنى. لم أعد أستطيع التفاهم مع أى عامل.

– دعك من هذا الآن وارتدى ملابسك لتختارى لهما بذلتين.
– اذهب وخذ ما تشاء.
– هريدى هناك، ولا أريد مشاكل معه.
عندما سمعت هذا تغيرت :
– سأرتدي ملابسى مسرعة. لا أريد مشاكل أكثر من هذا.
دخلوا المخزن معا. كانت فايقة ودودة معهم.
هريدى يجلس فى الخارج وهى لا تريد مشاكل من سيد :
– خذا ما تشاءان. كل البدل أمامكما.
أخذوا يبحثون فى الملابس الكثيرة وبخيت يبتسم فى حياء للاشيء. قال فايقة : لسيد وتوتو :
– فى هذا الركن ملابس جديدة.
خرجت فايقة، تحدثت مع العمال. هريدى يدخن الشيشة فى صمت وكبرياء.
خرج بخيت مرتديا بذلة جديدة. ويحمل ملابسه البلدية بين يديه.
وتوتو مرتديا بذلة مناسبة له، ويحمل ملابسه وهو ينظر إلى الجميع فى خجل، ود لو تماسك ولم يبك. وصل الحال له إلى أن يرتدى الملابس المستعملة.
قالت فايقة مجاملة :
– ما شاء الله. كأنكما ولدتما بهما.
أراد بخيت أن يدفع الثمن. وتوتو ازداد ارتباكا وألما. فهو لم يعد يملك مالا. أبعد سيد يد بخيت، وهو ينظر إلى هريدى متحديا. قال سيد :
– الحساب عندى.

أبعد هريدى وجهه للناحية الأخرى.

بعد أن خرجوا من الدكان بصق هريدى قائلا :

- مال بلا صاحب.

لم ترد فايقة، دخلت المخزن ثانية مع عاملين لتعيد ترتيبه.

* * *

كان الحفل فوق أحد الأسطح الواسعة فى غربال.

رجل قريب للحكش يحتفل بختان ابنه، اتفق معه على أن يحيوا الحفل بلا شئ (بالنقطة فقط) لم يقم الرجل "تختا".

جلس أعضاء الفرقة، والتفت المدعوون حولهم.

استأجر سيد أكورديون لعبده فاكهة، وطبلة لياسين، وعودا لبخيت، وكمانا لتوتو.

همس سيد فى أذن الحكش :

- الحساب ثقيل، إيجار الآلات. غير أجرة البنت حليمة.

لا تهتم يا ريس، أقاربى سيدفعون نقطة كثيرة الآن.

- تجلس حليمة بجوار سيد، كانت تحدثه هامسة فرحة. فهى لم تعمل منذ مدة طويلة. أمها لم تذهب إلى صديقاتها "عوالم شارع الزمزمى". ليرمين إليها "الليالى الفقايرى". وأبو دومة - الذى عرفته عن طريق سيد - لم يعد يرسل إليها، كما كان يفعل من قبل.

توتو يجلس بالملابس التى أتى بها من دكان فايقة. قميصه غسله بالأمس، وجعل جميلة تكويه له، البذلة قديمة لكن بحالة جيدة.

يبتسم بخيت فى حياء، يبحث من وقت لآخر عن توتو ليسأله :

- أنت بجانبى يا باشمهندس ؟

- نعم.

وياسين شارد، وهو يضع أصابعه فوق الطبلة. تشاجرت زكية معه. صاحت غاضبة :

- الفرش أبقى لنا من الحفلات، سيد يعمل ليلة وألف لأ.

لكن هو يحن للطبلة. ليلة واحدة من ألف ليلة، كأنها فسحة، ليلة اجازة من ذلك العناء. حتى لو لم يعطه سيد شيئا. فيكفيه أنه أعاد إليه ماضيه أيام إن كان طبالا تبحث الغوازى عنه، أو ربما تحدث المعجزة، ويعود كما كان، الطبال المشهور الذى تبحث عنه راقصات الكورنيش.

داعب بأصابعه جلد الطبلة الأملس، ونظر إلى ضوء المصباح فوقه ثم عاد لشروده.

* * *

يمد صبحى السورى ساقيه الطويلتين، ينظر إلى حذائه الذى قضى وقتا طويلا فى تنظيفه كى يلمع.

. والحكش يجلس فى الطرف ينظر من وقت لأخر إلى حليمة. انها تسكن قريبا من بيتهم، فى الجزء الذى تسكنه العوالم، والذى يتلاشى الآن شيئا فشيئا.

منذ أن ثار بعض رجال الحارة - ومن بينهم شقيقة محمود - هددوهم برمى أشيائهم فى الحارة إن لم يهجروا الحارة من أنفسهم.

كان محرما على الشباب الاقتراب من ذلك الجـــزء. لكن البنت حسناء، وتزداد جمالا من حفل لآخر. هى تعرف أسرته الكبيرة فى الحى. لم تعد غنية الآن. لكن يكفى مـــا كانت فيه من مجد.

تلتصق هى بالولد سيد - ابن فايقة - لاشك هى تحبه. لكن هو أهم من سيد رغم الفرقة التى يرأسها، فمن هو والـــد سيد أو أمه - تجار روبابيكيا. اغتنيا واشتريا محلا للملابس المستعملة كما أن سيد أصلا من قرية قريبة من الإســكندرية بينما هو صعيدى وأقاربه يملأون غربال، ويمثلون الأغلبيـــة العظمى فيها.

يعرف الحكش سيد قبل أن ينضم إلى فرقته، ويعرف صبحى أيضا. معرفة عابرة. إذا ما رآهما يحييـــهما مــن بعيد. لكنه شاهدهما فى أحد الحفلات التى يحييها. ويكـــون دائما نجما ساطعافيها، يخرج الأموال وبنقـــط ويحشـــش ... ويشـــرب البيرة من بداية الحفل لآخــــره. دون أن يصيبـــه دوار أو سكـــر، عندما يتجلى يصعد إلى المســـرح ويغنـــى أغنية من أغنيات "عزت عوض الله" مطـــرب الإسـكندرية الأول. ومطربه المفضل. قال لسيد - فى هذا الحفل - وقبل أن تؤثر الخمر على تصرفاته :

- إننى فنان مثلكم. وأود الانضمام لفرقتكم.

كان قد سمع - قبل أن يراهم - أن الولد ابن فايقة قد أسس فرقة للعوالم، قال سيد له :

- أهلا بك. تعال إلى قهوة أبو دومة فى "البياصة".

وجاء إليهم. دهش عندما عرف أن سيد يجيد العزف على أكثر من آلة موسيقية، ويحفظ عددا كبيرا من الأغـــانى. وأن صبحى من القلائل فى الإسكندرية الذين يجيدون الرقص السكندرى، كما أنه يعمل راقصا فى فرقـــة "أحمـــد أفنـــدى" المشهور جدا فى الإسكندرية (عمل فرقـــة أحمـــد أفنـــدى لا يتعارض مع عمل فرقة سيد، فأحمد أفندى تنتهى أعمال فرقته بعد التاسعة بقليل).

قال الحكش حينذاك فى خجل :

– أنا فى الموسيقى على قدر حالى.

غنى لهم أغنية "من العين دى حبة والعين دى حبـــة، وأعرف يا هاجر طبع الأحبة".

كان صوته قريبا من صوت محمد عبد المطلب، قال سيد :

– يمكنك أن تنضم إلينا. فنحن فى حاجة لذلك النـــوع مـــن الغناء.

حضر حفلتين صغيرتين معهم، أقيمتا فـــى مكـــانين بعيدين عن غربال.

* * *

معظم الحاضرين من أقارب الحكش، أو على الأقـــل من بلدته، لهذا يتحرك كثيرا ويبتسم للكثيرين.

وقف صبحى ليقدم الحفل، أشار له ســيد بــأن يبــدأ بالحكش مجاملة له لى وسط أقاربه ومعارفه.

وقف الحكش بقامته التى تميل إلى القصـــر، أنــزل الميكروفــون، مسح فوق رأسه وغنى : "خاصم شهر وصالح يوم، ياللى مقضى هوانا خصام، كفاية تسعة وعشرين يوم".

صفق معارفه له وضحك أقاربه خجليـــن. بعــد أن انتهى من الغناء، اقترب من سيد، سأله :

- أعجبتك يا ريس ؟

- الله ينور.

ثم نظر إلى حليمة التى كانت لاهية عنه فى الحديث مع عبده فاكهة. تتفق معه على اللحن الذى ستغنيه، وتوتــو يتابعهما ليعزف خلفها.

قامت حليمة لتغنى. غنت أغنية باهتة وهى ترقص، لكن حركاتها أثارت السكارى والمخدرين، حتـــى صـــاحوا وهللـــوا. ثم قدم صبحى المطـــرب ذا الصـــوت الحزيـــن. والنغم الأصل : "بخيت عوضين".

ترك توتو مكانه، وأسرع ليســـاعده للوصـــول إلـــى الميكروفون.

عزف بخيت على العود وغنى، الرجـــال اللاهـــون بالبيرة والحشيش أفاقوا .. أحسوا أنهم أمام مغن مـــن نـــوع خاص.

بدأ بخيت بالمواويل التـــى يحفظـــها منـــذ صغـــره، ومواويل أخرى حفظها من المنشدين فى قرى البحيرة.

بعد انتهاء كل موال كان الموجـــودون يصرخـــون. خشى صاحب الحفل ان يهدموا البيت بصراخهم.

ثم طلبوا من بخيت أن يعيد ويعيد.

عاد إلى مكانه فرحا. لقد حقق ما لم يكن يحلم به فى هذا الحفل. لقد غنى مرتين مع سيد، لم يستقبله الجمهور بهذه الحفاوة.

قبله سيد، وبكى ياسين وهو يقول :

-عدت بى إلى أيام زمان يا بخيت.

أحنى رأسه وعاد مسرعا إلى مكانه بجوار توتو. قبله توتو فرحا.

وقدم صبحى السورى رقصة سكندرية شهيرة. تحكى عن شاب يلعب القمار. ويخسر ما معه من مال، ثم يقامر بساعة يده وخواتمه وملابسه. وكل ما يملك فيتشاجر مع من يلعبون معه، يضربهم بالمقاعد ثم بالمطواه التى معه.

كل المدعوين فى الحفل لا يعرفون سوى الحكش، صبحى السورى يسكن قريبا من هنا. لكنه غير معروف لهم. أسرته غير معروفة. وكذلك سيد.

طلب بعض المدعوين من الحكش أن يأتى له بهذه الفرقة لتحيى حفلات لديهم.

* * *

كانت أم الحكش فى الحفل، غطت وجهها بطرحتها، قالوا لها أن ابنها يصادق "العوالم" لم تصدق. ها هى الآن تراه يجلس بينهم، ويقف ويمسك الميكروفون ويغنى. ويردد وراء شاب يتحدث بسرعة، ويمسك بربع جنيه فى يده : النقطة وصاحبها المعلم فلان.

يطيل الشاب حتى ينز العرق من صدره العارى، وكلما حاول الحكش الإمساك بالربع جنيه، يبعده الشاب عنه.

تردد أم الحكش وسط النساء :
- لعنة تلعنك، قصرت رقبة أمك.

يعمل الحكش زبالا، مثل معظم أهالى الحى. لكن والده كان غنيا. يمتلك بيوتا عديدة، باعها بيتا بيتا. وأنفق ثمنها على هواية "سباق الخيل" (مازال للآن يشترى الجريدة التى تنشر أخبار السباق) ولديه هواية أخرى هى جمع نتف القطن التى تتطاير فى الحوارى. يدور بنظارته السميكة والمعقودة خلف رأسه باستك. وبقفطانه الباهت القصير. يجمع القطن ويدسه فى سترته.

هو لا يعرف للآن أن ابنه يرافق العوالم + من سيقول له، وهو لاه عن كل شئ فى البيت والحى. لا تشغله سوى جريدة السباق والقطن الذى يجمعه آملا أن يجمع منه بالة بأكملها.

يضع القطن فوق حافة النافذة التى يطل منها معظم الوقت.

يعود الحكش من عمله فى الزبالة، يذهب إلى شونة الورق التى يمتلكها شقيقه الأكبر محمود فى شارع ٨، يحمل جونية الورق من عربته، يضعها على الطونولاته، يزنها. ثم يزن الكهنة (الأقمشة المهترئة) والعظم .. الخ.

يدخل الشونة. يجد النسوة يفرزن الورق والكهنة. يصنفن كل نوع فى مكانه.

البنت حربية تعمل معهن. عندما تراه تقف مبتسمة، تنفض التراب العالق بملابسها :
- أهلا حكش.

النسوة الأخريات يمصمصن شفافهن عجبا واعتراضا.

حربية من غربال، تسكن حارة قريبة من الحارة التى يسكنها الحكش.

يحبها هو منذ سنوات. من قبل أن تعمل فى شونة أخيه. أمها فقيرة. تقيم فى بيتها فرنا، تصنع الخبز الشمسى وتطوف به على محلات البقالة ليعرض بها. توسط الحكش لحربية حتى وافق أخاه محمود أن تعمل عنده.

هى رغم رائحة عفن الورق والكهنة فى ملابسها، شهية، وجهها أسمر، خداها بهما غمازتان وعينان تنعسان كلما رأته. تحلم بان يتزوجها - فهو - كثيرا ما يختلى بها فى الشونة. بعد أن يذهب أخوه وباقى العمال والعاملات إلى بيوتهم للغداء. يتناول الغداء معها. يصعدان بآلات الورق المتراصة. يتخفيان هناك، لا تمانع فى أى شئ يريده، يكفى أنه يحبها ويرغب فى الزواج منها.

لهذا، سعدت عندما قال لها أنه يغنى فى فرقة عوالم الآن، وفرحت أكثر عندما قال لها عن حفل اليوم. قالت النسوة عندما سمعته يغنى "خاصم شهر وصالح يوم". إنه على خلاف مع حربية، ويغنى هذه الأغنية لتصالحه + وقالت أختها فى سخرية :

- يكسفك ربنا.

غضبت حربية :

- ماله ؟

أسكتتها أختها قائلة :

- الناس حولنا.

بعد الحفل تركب الفرقة كلها أتوبيس سيد؛ الذى أتى به، وركنه بجوار الحفل. يلف سيد بالأتوبيس، أصحاب الحفل وبعض المدعوين يودعونهم، يطلق سيد آلة تنبيه سيارته العالية، يخترق الصوت صمت الفجر.

ياسين وحليمة يجلسان فى المقعد الأمامى، يعد سيد النقود ويعطيها لحليمة، وهو مازال يقود السيارة.

- مبسوطة ؟

- كل ليلة وأنت طيب.

ثم يعد النقود ثانية ويعطى لياسين الشارد طوال الوقت، لن تدعه زكية يفعل ما يريد، وتركية - هى الأخرى- تكره العوالم وسيرتهم.

يهبط ياسين من السيارة ضجرا، فربما لم تنم زكية وأمها تركية إلى الآن، وتهبط حليمة. وتوتو وبخيت يجلسان فى الخلف، ثم صبحى والحكش، وعبده فاكهة وحده فأكورديونه فى المقعد المجاور.

تسير السيارة وسط الشوارع الخالية، يسأله توتو :

- إلى أين ؟

لا يسمعه أحد، ينطلق الأتوبيس، يصل إلى محطة الرمل، يسير على الكورنيش.

تهتف نسوة آخر الليل العائدات من البارات والكازينوهات، ينتظرن التاكسيات الخالية، يقف سيد لهن.

- إلى أين ؟

- سيدى بشر.

- طريقنا.

يقف الأتوبيس كثيرا، تصعد النسوة، يتثاءبن، يشعلن السجائر مختلفة الأنواع فى شراهة، يقدمنها إلى أفراد الفرقة فى سخاء.

يتحدث توتو الذى يجلس خلف سيد :

- كيف ستستطيع العمل طوال اليوم، وأنت لم تنم طوال ليلة أمس ؟

- ربنا يستر.

تدفع النسوة الأجرة وينزلن. يسألنه :

- ستأتى كل ليلة فى نفس الموعد ؟

- لا، بالصدفة.

يركن الأتوبيس بجوار أحد الشواطئ، ينزلون. بخيت يضع يده فى ذراع توتو، وصبحى يحمل زجاجات البيرة والأكواب التى أخذوها من أصحاب الحفل. يجلسون على حافة الكورنيش.

يرقص صبحى فى خفة على الرصيف الخالى من المارة، ويصفقون له، يكتفى بخيت بابتسامة خجلى.

يعد سيد النقود (النقطة) يحسب نصيب كل فرد بعد أن يستنزل أجرة الآلات وأجرة حليمة وياسين.

يهمس الحكش له، دون أن يسمعه سواه :

- لم يكن من الضرورى الكمان، الناس فى هذه الحفلات يكفيهما الأكورديون والطبلة.

لا يجيب سيد بشيء. فهو يحلم بأن تكون بفرقته أكبر عدد من الآلاتية.

يبحث صبحي السورى عن دكان مفتوح ليشترى منه طعاما للفرقة. بعد قليل يسمعون أصــوات النســوة اللاتــى يستحممن فى ذلك الوقت بعيدا عن أعين الرجال .. النســـوة يضحكن، يخلعن ملابسهن فى حرية، يتمازحن، يعود صبحى بالطعــام لا يهتمون به، يضعه فى الأتوبيس المفتوح، وينضم إليهم، يشاهد ما يشاهدونه عندما تحس النسوة بهم، يسرعون إلى الأتوبيس، يذهبون إلى شاطئ آخر.

(٦)

تدخل جميلة الفندق الذى تعمل به، تخلـــع ملابســـها، ترتدى زى الفندق المميز، تحمل دلـــوا وممســـحة وتدخـــل الحجرات الخالية، تنحنى على البلاط تمسحه.

تدعى أمها أنها تعمل موظفة في الفندق، نسوة الحارة يعلمن أن جميلة لا تحمل شـــــهادات، وأن أباهـــا - قبـــل أن يموت- أصر على أن تترك المدرسة بعـــد الســـنة السادســـة الابتدائية. لكنهن يتظاهرن بتصديقها.

بعد أن يذهبن بعيدا عنها، يضحكن ساخرات ..

يأتي إلى الفندق شابان يرتـــدون ملابـــس إفرنجيـــة. يعقدون كرافتات.

حلمت جميلة طويلا بـــزوج يرتـــدى بذلـــة كاملـــة، وكرافتة، ويحمل فى يده جريدة يعود إليها بعد الظهر عـــائدا من مكتبه.

آه لو حدث هذا، سيعوض الله صبرها خيرا.

يتمناهـــا الكثيرون فى الحارة. لكن أهلهم يمـــانعون فى الزواج منها "لأن أمها وأختها زكية تكثران من الشجـــار

والسباب طوال اليوم. ولأن أمها كانت فى شبابها عالمة، وأقاربها - للان - يعملون مع العوالم.

هى لا تهتم بهؤلاء الشبان، لو أرادت لسايرتهم، وجعلتهم يعارضون أهلهم، ويأتون إليها صاغرين، لكنهم لا يروقون لها.

لكن ذلك الولد - توتو - أثر فيها. جعلها تتذكره وهى منحنية تمسح بلاط الفندق، وتتذكره وهى تشاهد الأفندية رواد الفندق - الذين كانت تتمناهم قبل أن تراه.

تشرد. وهى تنظر إليهم. أيهم أقرب شبها له. إنه طويل وليس كهذا.

جبهته عالية وشعره ناعم. ينسدل فوق جبهته أحيانا.

بعض رواد الفندق يظنون بها السوء، لطول نظراتها لهم. تفيق - هى - فجأة تسرع بعيدا عنهم.

يقضى ياسين - زوج أختها - بعض الوقت معه، ومع بخيت الضرير، لهذا تهتم بياسين هذه الأيام. تصعد إلى شقته، إذا كان موجودا. تداعب أطفاله.

تدهش زكية لكثرة صعودها إليها. تعرض جميلة عليها أن تساعدها فى غسل الأوانى، وهو ما لم تكن تفعله أبدا - من قبل -

تنتظر من ياسين أن يذكره أمامه. لكنه لا يذكر شيئا.

تقترب منه، تدور حوله، تحدثه خجلة.

ما الذى جعلها تفعل هذا. لقد كانت تتعالى على ياسين (لم تتشاجر معه مثل امها وأختها زكية. لكنها لم

تتباسط معه كما تفعل الآن) تبتسم له، وتذهب لتعد له شايا إذا ما امتنعت زكية من صنعه له. وتذهب لتشترى له معسلا على حسابها.

تندهش زكية لهذا، تقول :

– البنت جميلة ربنا هداها.

لكن ياسين – وحده – يعلم سبب تغيرها، لكنه يحاور ويداور، ولا يبوح لها بما تريد. تنتظر جميلة حتى تخلو به، إذا ما نزلت زكية للفرش :

– لا أراك تصعد لتوتو فى كوخه ؟

يضحك :

– كنت لديه بالأمس. وشاهدتنى وأنا أصعد إليه.

تضحك وهى خجلى.

– لا تخجلى من شئ. الولد توتو ابن ناس. ويستأهل كل خير.

– أنت فهمت خطأ.

– **رغم هذا يستأهل كل خير.**

تجرى جميلة خجلة. ويضحك ياسين طويلا.

* * *

لم أقابل جميلة منذ أيام، انشغلت عنها "بعمى" بخيت المفاجئ. والحفل الذى أحييناه. اشتريت الجريدة وانتظرتها. جاءت + كانت ترتدى فستانا أحمر زادها جمالا. وكنت ارتدى البذلة التى أخذتها من دكان (أم سيد) قلت :

– شكلك جميل فى الفستان.

– وأنت. لم أر هذه البذلة عليك من قبل.

خشيت أن تعلم أنها من دكان (أم سيد).

- كنت أخشى ألا أراك اليوم أيضا.

- انتظرك منذ وقت طويل.

- صحوت مبكرة من أجلك.

- فلنذهب إلى مكان بعيد لنتحدث معا. حتى يحين موعد العمل.

- لكن .....

- أتخافين ؟

- أخشى أن يرانا أحد من أهل الحارة.

سرنا معا، جلسنا متجاورين فوق مقعد فى حديقة الشلالات، الكثيرون يمرون أمامنا فى طريقهم إلى عملهم. من الممكن أن يرانا أحد سكان الحارة. أو الحارات المجاورة. أمسكت يدها، تذكرت كريمة ابنة خالتى دولت، كانت تفرح عندما ترانى، تلهث من الجرى والحديث. لكن جمال جميلة من نوع آخر. نوع ليس موجودا فى عائلة أبى ولا عائلة أمى، ولا حتى عائلة بسيمة.

تناولنا الطعام معا فوق المقعد الرخامى. ضحكنا طويلا. أوصلتها إلى الفندق وعدت ثانية.

أحسست بشوق لرؤية أبى. أحقا، هو يبحث عنى كما يقول بخيت ؟

سرت بجوار مكتبة البلدية علنى أجده يدخل بسيارته.

لو بحث أبى فى كتبه. سيجد الأوراق التى كنت أكتب فيها خواطرى. ليته لا يبحث فلو وجدها سيغضب، فلقد

كتبت فيها مـــا أحسه نحوه. كتبت عن التغيير الذى حـــدث فى حياتى بعد دخول بسيمة الشقة.

كنت اخرج معه فى الصباح، يخرج مـــن محفظتـــه مبلغا لى. يعطينـــى إياه أمام بســـيمة. يدســـه فـــى يـــدى بعصبية، وكأنه لا يريد أن يعطيه لى. بعد أن نسير يخـــرج فى الطريق محفظته ثانية، ويعطينى مبلغا آخر. ويربت فوق رأسى بحنان :

- لا تقل لبسيمة عنه.

أمسك نقوده بيدى، لا أضعها فـــى ســـترتى. أود أن أرميها. ليته لـــم يعطنى إياها. أيصل الأمر به لأن يخـــاف أن يعطينى ما يريد أمامها.

بكيت وقتها. تذكرت أمى درية التى كانت تدللنـــى - أسمتني توتو.

كانت تذهب إلى المدرسة، أذكر منظرهـــا، بـــالفرو الثمين. فوق ظهرها، كأن ما حدث كان بالأمس.

تتحدث مع أحد المدرسين، توصية بأن يـــهتم بـــى. الأطفال فى الفصل يضيقون بتدخلها، خاصة وهى تأتى داخل الفصل وتحدثهم :

- تيمور زميلكم، اهتموا به.

الأطفال يستنكرون هذا. يتـــهموننى بـــالضعف، لأن أمى تأتى لتوصى علي.

يكتب أحدهم على "السبورة" ســـاخرا منـــة "القنـــابل الذرية".

لكننى استطعت أن أكسب لصفى بعض التلاميذ. أعطيت بعضهم نقودا. ودعوت البعض لدخول السينما. أحسست بأشياء لم أرها من قبل. سينما درجة ثالثة. صفير وسباب. عالم آخر غير كتب أبى وفرو أمى الثمين.

أذهب مع بعض الزملاء إلى "محطة مصر"، أركب الترام معهم. يتبارون فى القفز منها وهى مسرعة. والصعود إليها قبل ان تقف.

كانت شخصية أمى قوية. أثرت على وعلى أبى. هى التى شجعته لكى يحصل على الماجستير. أحيانا أحس أن شخصية أبى هى الضعيفة. وأن أى امرأة مهما كان قدرها، من الممكن أن تؤثر عليه.

فبسيمة - التى لا تجيد القراءة - والتى ليست فى شخصية أمى. استطاعت أيضا أن تسيطر عليه. جعلته يكره الكتب والموسيقى، ولا يرتاح إلا فى حجرة نومها.

وقفت للحظات أمام سور المكتبة الحديدى، لمحت نافذة حجرة أبى. وموظفا يعرفنى رأيته فى البيت كثيرا. يخرج من الباب + أسرعت وتواريت بعيدا.

أترى بسيمة قلقة من أجلى الآن. كما يدعى بخيت؟، لا ذلك كثير. فبسيمة لا تحبنى أبدا. لكن بخيت طيب ويظن كل الناس مثله.

وقفت بجوار كشك سجائر، نظراً إلى البائع متسائلا، قلت :

- زجاجة مرطبات.

قدم البائع الزجاجة. ترددت طويلا قبل أن أقول :

- ممكن التليفون ؟
- تفضل.
أمسكت السماعة. أدرت القرص. جاءنى صوت بسيمة :
- ألو. ألو.
لم أرد عليها. لم أتطع أن انطق. صاح صوتها بحدة
- آلو ... آلو
ظللت ممسكا السماعة للحظات. ثم سمعت السماعة توضع فوق التليفون فى عنف عدت إلى غربال، تابعتنى حليمة العالمة من نافذتها، أشارت بيدها إلى قلت متسائلا :
- أنا ؟
- نعم.
أسرعت إليها، ظننتها ستحدثنى عن الفرقة، أو تسألنى عن سيد، قالت :
- تعالى فى الداخل، ليس فى الشقة سواى.
دخلت الشقة. كانت ترتدى جلبابا يكشف عن صدرها:
- انتظرتك طويلا.
- خير ؟
- أعجبنى عزفك فى الحفل. أنا عالمة محترفة. وأفهم فى هذه الأمور جيدا - كل الذين رأيتهم بالأمس هواة. سواى.
مازلت أقف أمامها حائرا.
- جميلة سارت خلفك. أظنكما تتقابلان خارج الحى.
- من أخبرك بذلك ؟
- اجلس، أستظل واقفا ؟

جلست على حافة الكنبة العربى.

- ألم يسأل أبوك عنك للآن ؟

- من قال لك عن هذا أيضا ؟

- الحارة. لا تعرف حكايتك.

وقفت، اقتربت منى. أحنت رقبتها فكشفت عن الجزء المتخفى من صدرها :

- أعد لك فنجانا من القهوة، لاشك أنت تحب القهوة. نعم. باشمهندس وفنان.

- أشكرك.

كنت حقا فى حاجة إلى فنجان قهوة. فمنذ أن تركت البيت، لا أشرب القهوة إلا فى قهوة أبو دومة.

- ليتك تعود لأبيك. وتكمل دراستك وتحصل على شهادتك. صدقنى لن تنفعك جميلة ولا سيد.

جلست بجانبى، ذراعها الممتلئة لامست ياقة قميصى :

- لكن لا تنسانى. يقولون أن والدك موظف كبير. أليس كذلك ؟

- نعم.

- وأن أمك تركت لك عمارات وأموال كثيرة.

وقفت ضجرا :

- أرجوك أريد أن أذهب.

وقفت أمامى، وجهها اقترب من وجهى.

- إن كان ولابد، فتعال وعش معنا فى الشقة. بدلا من ذلك الكوخ. سترحب أمى بك كثيرا، الشقة واسعة كما ترى، وليس فيها سوانا.

سرت إلى الخارج، وهى تجرى خلفى.

- يا باشمهندس.

أسرعت إلى بيت تركية. التى كانت تتابعنى فى دهشة وأنا خارج من باب بيت حليمة.

عندما اقتربت منها. سمعتها تمصمص شفتيها قائلة :

- حكم.

* * *

رمت حليمة الأشياء فى طريقها غاضبة. ذلك الولد أهانها، لم يعجبه قولها ما الذى يعجبه فى جميلة، هو لاشك يقابلها بعيدا عن البيت.

تردد أم حليمة دائما لها :

- حظك سيئ فى كل شئ. أتيت بعد أن ضاع كل شئ.

تحكى أمها عن شبابها، لقد كانت جميلة (حليمة لا تصدق، فوجهها الأسود، وجسدها اليابس لا يوحيان بذلك أبدا).

أتت حليمة بعد أن مات أبوها عازف الأكورديون البسيط، والذى كانت أمها لا ترقص إلا على موسيقاه، كانت تردد وهو "يقسم" على الأكورديون :

- حلو يا عرب يا مريح "الجثة".

تقصد بالجثة جسدها، وسيد زوجها يبتسم، ويضحك الآخرون، وتخجل النسوة اللاتى يتابعنها.

كل هذا ضاع فجأة بعد موت الرجل، هجر العوالم المكان، وظهرت مكاتب حديثة لوكلاء الفنانين، يعملون بالتليفون، وبالطرق الحديثة.

تبحث حليمة عن فرصة لكى تظهر، فلا تجد. يقولون أن ابنة شقيقة تركية مشهورة الآن. تظهر فى السينما. ما الذى ينقص حليمة لتصل مثلها، وجهها جميل. وجسدها خلق للرقص.

سيد يحبها، يقضى أوقاتا بجانبها، تسايره فى حبه. فهى فى حاجة إليه الآن. يعطيها فى الحفلات مبلغا معقولا. يكفى لنفقاتها لعدة أيام إلى أن تجد حفلا آخر معه أو مع غيره. ويقدم لها هدايا من وقت لآخر. لكن. ليس هو الذى تتمناه. ما الذى سينتهى إليه. إنها تريد أشياء أخرى كثيرة لا يمتلكها سيد، ولا أى شاب من غربال. تريد باشمهندس، من أسرة كبيرة، سيرث أمه يوما، ويمتلك عماراتها ومال أبيه.

ذلك الولد جاء إلى غربال من أجلها هى، وليس من أجل جميلة ابنة تركية.

(٧)

كانت جميلة قلقة – تتحرك فى كل مكـــان بالشقـــة. تخرج إلى باب البيت. تقف بجوار عشة زكية وياسين. ثـــم تعود ثانية إلى الشقة.

لقد سمعت أمها تحكى لزكية :

– رأيتـــه بعينى يدخل إليها. ثم انتظرته حتى خـــرج مـــن عندها، كانت تجرى خلفه

كادت جميلة تجن. كيف حدث هذا. لقد كان معها فى الصباح. فمتى ذهب إلى حليمة. ظننته يحبها هى. لو لم يكن يحبها. فلماذا جلس معها فى الشلالات ؟ ولماذا قال لها ما قاله ؟!

لعله قال لحليمة العالمة ما قاله لها. وتحـدث معـــها بنفس الطريقة الحالمة. وربمـــا جلس معها فى نفس المكـــان الذى جلس فيه مع جميلة.

بكت وهى جالسة فى ركن بعيد. ثم قـــامت فجـــأة، دفعت الباب فى عنف. وأسرعت إلى الكوخ.

زكية تبعتها :

– جميلة. ماذا بك ؟

لم تقف. عادت زكية إلى أمها خائبة :

- إنها تبكى.

شردت الأم، وعت كل شئ.

دقت جميلة باب الكوخ، خرج توتو لها :

- أهلا جميلة.

صاحت غاضبة :

- ما الذى جعلك تذهب إلى حليمة العالمة ؟

- ما الذى حدث. أنا لا أفهم.

بكت :

- أنت تضحك على، كنت أظنك تحبنى وحدى.

فتحت أبواب الأكواخ الأخرى. أطلت منها بعض الرؤوس. قال توتو وهو ينظر إلى جسد بخيت الملقى فى آخر الكوخ :

- هى التى دعتنى، ظننت أنها تريدنى بخصوص الفرقة أو أن سيد ...

أرادت أن تسرع إلى أسفل. أمسك يدها :

- صدقينى يا جميلة. هذا ما حدث.

صدقته، فليس من السهل أن تضيع كل الأحلام التى حلمتها من أجله فجأة.

هبطت الدرج وهى تمسح دموعها، كانت زكية فى انتظارها. أمسكت يدها أمام شقة فايقة :

- تعال .. أمك فى انتظارك.

تركية تقف أمام باب شقتها. تحدثت بصوت خافت حتى لا يسمعها الجيران :

- ماذا تفعلين فوق السطوح ؟

- لا شئ.

شدتها أمها وأدخلتها الشقة. تبعتها زكية.

- أجننت يا جميلة. تصعدين لشاب فوق السطوح وأمام السكان ؟!

قالت زكية :

- دعيها يا أمى. سأعرف منها كل شئ. اذهبى واجلسى مكانك.

زفرت تركية وعادت إلى مكانها المعتاد أمام البيت.

ماذا بك يا جميلة. تحبين هذا الولد ؟

- ليس لك شان بى.

- أنا أختك وأعرف مصلحتك.

بكت جميلة :

- إنه شاب طيب وابن ناس.

- أعرف هذا. يريد أن يتزوجك ؟

- لم يقل لى هذا.

- تريدين - أنت - أن تتزوجيه ؟

لم ترد. لكنها بكت ثانية. ضحكت زكية وقالت :

- لا تحزنى، مادام يحبك سيتزوجك.

* * *

يجلس ياسين فوق "الفرش" بجوار كميات كبيرة من القصب. تقطعها زكية بسكينها الكبير وتبيعها للأطفال.

لم يعد ياسين يسمع سوى بكاء فايقة. منذ أن هجرها هريدى وهى حزينة صوتها تغير، دائمة الشكوى من

الصداع. تضع الليمون المعصور فوق صدغيها وتغطيه بايشارب، وتربط رقبتها باشارب آخر.

تردد تركية لها :

- علاجك معروف يا فايقة.

- دلينى عليه.

- الزوج يا فايقة.

تزداد فايقة نحيبا :

- لم تعد لى صحة للزواج.

يقرفص ياسين فوق "الفرش"، يشد المعطف الثقيل على جسده.

منذ أن أقامت زكية ذلك الفرش وباعة الخضار والفاكهة الجائلون لا يقدرون على المرور أمام البيت. جرؤ أحدهم يوما، فأمسكت زكية يد العربة وقلبتها، فتناثرت بضاعته فى الشارع.

يقاوم ياسين النوم، يحس بأنه سيموت فى ذلك المكان، ستأتى إليه زكية لتوقظه ككل يوم، فستجده قد مات داخل ذلك المعطف الثقيل.

عندما سهر مع سيد وفرقته فى آخر حفل، مزقت زكية ثوبه الذى أتى به من بلده، كان يطويه بعناية ويضعه أسفل الصندوق الذى تخزن زكية الملابس داخله، لا يرتديه إلا فى الحفلات التى يحييها وفى الأعياد.

شدت زكية الثوب من فتحته ولم تتركه إلا بعد أن تمزق ذيله. ساعدها على ذلك أن الثوب قديم ولا يحتمل شيئا، أراد أن يأخذ ملابسه الأخرى ويترك البيت لكن الأطفال

بكوا، وأحاطوا به، زكية صمتت حينذاك، وتظاهرت بجمـــع الملابس الأخرى التى رماها وهو يبحث عن ملابسه.

اضطر أن يبقى من أجل أولاده.

* * *

قابلته جميلة ككل صباح، سارت بجواره :

– كدت أجن عندما علمت أنك تزور حليمة العالمة فى بيتها.

– وأنا سعدت لأنك تغيرين علي.

– أمي غضبت لأنى صعدت إليك.

– لم أعد أخاف أمك. لو كان تركى لبيت أبى قد أضرنى فى شئ. فيكفى أننى فزت بك.

– لكن موضوعنا صار معروفا للجميع. كثيرون فى الحارة رأونا معا.

– ليس مهما مادمت أحبك وتحبينني.

* * *

– فكرى جيدا يا جميلة فيما قلته لك.

– يا زكية لا أستطيع.

– يا خائبة، الولـــد غنـــى وابن ناس. والكثـــيرات تطمعـــن فيه. وأنت أولى منهن.

– لا أستطيع يا زكية.

صرخت أمها فيها :

– تفضحينا، ثم ترفضين ما تريده أختك ؟!

– يا أمى .....

ضربتها أمها فوق صدرها :

- الحارة كلها تعرف أنكما تتقابلان، وتجلسان فى الشلالات، وأنا نائمة على أذنى.

بكت جميلة :

- لا أستطيع أن أفعل هذا.

قالت زكية :

- ما ستفعلينه ليس عيبا مادام يحبك ويريدك.

صاحت الأم :

- إن لم تفعلى هذا. فسأصعد لكوخه وأرمى أشياءه. ولن أدخله البيت ثانية.

- حرام يا أمى ...

- حرام عليك أنت، أختك لم يحدث فيها هذا أبدا.

شدتها زكية بعيدا، وقالت لأمها :

- اتركيها أنت، سأقنعها بما أريد.

* * *

صعدت جميلة الدرج، ودقت الكوخ، كان السطوح مظلما والمصباح خافتا. بخيت لم يأت من الخارج بعد، فتح توتو الباب، لم يعرفها أول الأمر. قالت :

- مساء الخير.

- جميلة، أهلا بك، ماذا حدث ؟

الوقت متأخر، سكان الأكواخ الأخرى نائمون الآن. وتوتو كان نائما مثلهم أسرع إلى المصباح، أزاد اشتعاله :

- ماذا حدث ؟.

- أريد أن أدخل الكوخ.

وضعت قدميها فوق حافة الكوخ. عندما اقتربت منه رأى المساحيق تملأ وجهها. تراجع للخلف مشدوها :

- ألا تريد لى أن أدخل.

كانت قد دخلت بالفعل. ردت باب الكوخ بظهرها، ثم أغلقته بالمزلاج :

- جميلة ؟!

طوقته بذراعيها، وجهها جميل حقا، لأول مرة يرى الكحل بعينيها الواسعتين البراقتين.

شعرها ينسدل فوق جبهتها :

- لماذا سمتك أمك جميلة ؟

ضحكت :

- يقولون إنى كنت جميلة عندما ولدت.
- بل تزدادين جمالا.

حاول أن يبتعد عنها، مازالت تطوقه بذراعيها :

- أحبك يا توتو.

ابتعدت عنه فجأة، مازال متأثرا بجمالها، وبما فعلته به، شدها إليه، كانت تصيغ السمع لخارج الكوخ، أحست بأقدام تصعد الدرج.

- جميلة، ليتنى أستطيع أن أتزوجك.
- حقا تريد ذلك ؟

ازدادت هما :

- لكنك مازلت فى الكلية.
- عام واحد وأتخرج وأعمل. كما أننى أعزف فى الأفراح. وأكسب.

دق الكوخ فى عنف :

- افتح يا توتو.

دار غاضبا، خائفا :

- ما هذا ؟

- لست أدرى.

صاحت تركية :

- أهكذا تخون الأمانة ؟ تأخذ البنت فى كوخك. وأنت فيه وحدك.

صاحت جميلة باكية :

- تبعونى وأنا صاعدة إليك.

رددت زكية :

- اصمتى يا أمى. لعلها ليست بالداخل.

- لقد رأيتها تدخل إليه.

صاح هو :

- أمك وأختك، ماذا أفعل ؟

بكت :

- لا أدرى. لا أدرى.

لم يكن بكاؤها تمثيلا، فقد كانت حائرة وغير راضية عما حدث.

فتح الباب، وتوارى داخل الكوخ. صاحت تركية بصوتٍ مرتفع :

- اشهدوا يا ناس، ابنتى دخلت الكوخ مع توتو، أغوى البنت الصغيرة، ضحك عليها.

أطل سكان الأكواخ داخل الكوخ. رأوهما، جميلة تبكى والكحل والمساحيق والدموع تلطخ وجهها. وهو بعيد فى آخر الكوخ. لا يدرى ماذا يفعل.

صعد ياسين، قال غاضبا :

- ماذا تفعلين ؟. لقد سمعت صوتك وأنا فى الشارع.
- انظر ماذا كان يفعل الذى أتيت به ليسكن عندى.
- اهبطى أنت وابنتك وسأسوى كل شئ.
- لا. لن أهبط قبل أن أعرف مصير ابنتى. لقد لوث شرفها. ولا أدرى ماذا فعل بها.

صاحت جميلة :

- كفى يا أمى عن هذا.

صحت تركية باكية :

- **يفعل هذا بها، لأن ليس لنا رجل يدافع عنها.**

جاء بعض أهالى الحارة. كانت تركية تولول :

- بأى شئ تحكمون يا ناس ؟

قال ساكن من سكان السطوح :

- يتزوجها.

أكد الكثيرون قوله :

- أجل، يتزوجها.

صاحت تركية :

- ومن قال لكم إنى أوافق على ذلك. هو ابن ناس حقا. لكنه مازال يدرس.

قالت زكية :

- وماذا سنفعل يا أمى مادامت فعلت هذا معه.

خرج توتو وقتذاك وقال :

- لم أفعل شيئا.

شدته تركية من ملابسه فى عنف :

- ولك عين، سأسلمك للبوليس ليحقق فيما فعلت.

قال ياسين بنفاد صبر :

- اتركى الولد، سأسوى هذا معه.

اقترب الرجال من توتو. قالوا له :

- تزوجها يا ابنى بدلا من الفضائح.

جلس على حافة كوخه يائسا، قال ياسين :

- يتزوجها، اهبطى الآن مع ابنتكِ.

- لا. ستزوجها الآن. أنا لا أضمنه. قد يخرج من البيت ولا يعود.

- ومن أين ستأتى بمأذون الآن ؟

- أعرف مأذون يسهر للصباح.

وقف توتو وقال وهو يبكى :

- كيف سأتزوجها وأنا مازلت أدرس فى الكلية.

صاحت تركية غاضبة :

- سمعتم يا ناس. يريد أن يتنصل.

- لا أريد أن أتنصل. لكننى مازلت آخذ مصروفى من أبى.

- ليس لنا شأن بهذا. تذهب لأبيك الآن وهو يحل المشكلة.

ازداد نحيبا، اقتربت جميلة منه، بكت مثله، ثم ربتت على ذراعه.

صاحت تركية غاضبة :

- أمامك ثلاثة حلول : أن تتزوجها، أو أسلمك للبوليس، أو أن أذهب لأبيك وكل هؤلاء شهود على فعلتك.

* * *

عادوا من لدى المأذون جماعات : سكان السطوح يتحدثون معا، يبدى كل منهم رأيه فى الموضوع، وتوتو يسير بجوار ياسين كأنه عائد من تشييع جنازة، وتركية وابنتها تسيران معا، وجميلة وحدها تسير حزينة شاردة.

لقد اتفقوا على أن يتم الزفاف بعد أيام قليلة.

تمنى توتو أن يتزوجها. لقد ترك أبيه وأسرته وأسرة أمه وأسرة بسيمة.

فى الأسر الثلاثة بنات. بعضهن يسعدن لحديثه. ويسعدن لسماع موسيقاه وخاصة كريمة ابنة خالته دولت.

لكنه ترك هذا كله ورضى بأن يعيش فى غربال وفى كوخ من الصفيح.

جميلة كانت تكمل الصورة التى يعيش فيها. وجهها المستدير وعيناها السوداوان وحاجباها الكثيفان. واللذان يلتقيان فوق أعلى الأنف المستقيم. سأل نفسه كثيرا بعد أن يعود من لقائها. ألو عاد إلى بيت أبيه سيتذكر جميلة، أو يرغب فى مقابلتها ثانية. أم أن الحالة التى بها الآن هى التى تفرض عليه ذلك.

عندما دقوا الباب ظن أنها مشتركة معهم. خاصة أنها أول مرة تدخل كوخه كما انها ألحت فى دخوله. وأيضا، لوضعها المساحيق فوق وجهها. فهو لم يرها هكذا أبدا.

لكن عندما رآها تبكى، أحس بأنها صادقـــة، وأيقــن بأنها لم تكن تعلم بقدومهن.

*　　*　　*

عندما عاد سيد صدمته الأخبار :

- لماذا أذعنت ووافقتهم.

- كنت أحبها.

- والفرق بين أسرتك وأسرتها ؟

- أين أسرتى الآن. هذه الحوادث تؤكد أننى لن أعود إلـــى أسرتى ثانية.

عندما دخل ياسين، قال سيد :

- كيف سمحت لهم بأن يفعلوا هذا به ؟

- إنه يحب البنت، والبنت تحبه.

- وأسرته ؟

لم يـــرد بشيء. فهو يعلـــم أنـــها مشكلـــة معقـــدة. يصعب عليها.

أراد سيـــد أن يخرج ويتشاجر مع تركيـــة وزكيـــة. لكن أمه بكت وشدته قائلة :

- يا ابنى إننا لا نقدر عليهما.

عندما لقى تركية صاح بها غاضبا :

- لماذا فعلت بصديقى هذا ؟

أرادت أن تقف وتسبه. وتضربه أيضا. لكن زكيـــة شدتها من ملابسهـــا، وأكدت عليها من قبل ألا تثير مشكلـــة مع سيد إذا ما حدثها فى هذا. حتى لا تفسد كل ما حدث.

صمتت تركية ولم تجب. اكتفت بأن زفرت في ضيق. قالت زكية ضاحكة :

- النصيب جمعهما يا سيد. عقبال ليلتك.

أحس سيد بالمهانة، لو كانتا تهتمان به ما قدرتا أن تفعلا بصديقه هذا.

* * *

سار بخيت وتوتو معا، سبقهما سيد إلى قهوة أبو دومة.

قام أعضاء الفرقة مهنئين توتو لزواجه. قال سيد :

- لابد أن نحيوا هذا الحفل.

قال صبحي :

- إن لم نحي حفل مثل هذا، ماذا سنحيي إذن ؟!

كان صبحي يرتدي بذلة صفراء بها خطوط حمراء (زى فرقة أحمد أفندى الموسيقية) قال :

- أحمد أفندى فى حاجة لأعضاء فى الفرقة.

قال الحكش :

- سأذهب معك.

وقال سيد :

- خذوا توتو معكم. وسأبقى أنا مع بخيت.

ردد توتو قائلا :

- إننى لا أعرف شيئا عن هذه الموسيقى.

ضحكوا، فأحمد أفندى لديه فرقة موسيقى حسب الله، مكونة من عشرين عضوا - تقريبا - إذا ما ذهبوا لحفل ساروا فى الشوارع صفين ..

يتقدمهم حامل الراية. ثم احمد أفندى بصفارته الصغيرة. عازفا لحنا معروفا. وباقى الفرقة ترد عليه طوال الطريق للحفل.

يقف الناس على الصفين يشاهدونه، وتخرج الأجساد من النوافذ والشرفات تنظر إليه.

لكنه يحتاج - أحيانا - لعدد من الشبان، يلبسهم ملابس فرقته ..

يجلسون فى الحفل مع باقى أفراد الفرقة، تعزف الفرقة. وهم لا يعملون سوى أخذ الملبس والجاتوه من أصحاب الحفل. وبعد أن ينتهى الحفل. يعطى أحمد أفندى لكل واحد خمسين قرشا.

يقولون أن أحمد أفندى كان ضابطا فى الجيش، فى فرقة الموسيقى.

واستقال ليؤسس فرقته تلك. وإنه فى أول حياته الموسيقية كان يرفض النقطة ولا يسمح لأحد من المدعوين بالرقص أمام فرقته. ولكن بمرور الأيام وافق على تلقى النقطة، لكن بالنسبة للرقص اتفق مع صبحى السورى (بعد أن رآه يرقص فى إحدى الحفلات) بأن يؤدى نمرة فى الرقص فى كل حفل يحييه.

من يومها وصبحى يرتدى زى الفرقة مثلهم. مع إنه لا يجيد العزف على أى آلة من آلاتهم.

يحرك ذراعيه وهم يسيرون فى الشوارع. ثم يقدم رقصته كنمرة من نمر الفرقة.

(٨)

يدخل سيد شقته، تصحو أمه من نومها. تضع يديها فوق رأسها. تشكو الصداع، يحاول أن يتجنب حديثها حتى ينام الساعات القليلة من الليل، فلو بدأت الشكوى لن تنتهى. سألته :

- أعد لك العشاء ؟

- تناولته فى القهوة.

يدخل حجرته، ويتركها حائرة. هى تصحو فى أى وقت تشاء. هريدى يفتح الدكان فى الصباح، وتذهب هى إليه قبل الظهر بقليل، ولكن سيد عليه أن يصحو مبكرا ليأخذ الأتوبيس من المنشية إلى المنتزة.

لذلك ما أن يضع رأسه على الوسادة حتى ينام. لولا "المنبه" ما استطاع أن يذهب إلى عمله أبدا.

يضع رأسه تحت الصنبور طويلا حتى يفيق، ويشرب شايا أسود. يعده بائع الشاى فى موقف الأتوبيسات فى المنشية. ثم قهوة فى المنتزة. وسجائر كثيرة حتى يفيق. قلة النوم تجعله عصبيا. يتشاجر - أحيانا - مع الركاب لأقل شئ. وفى الأيام العادية يغنى طوال الوقت.

لذلك يسموته الكمسارية الذين يعملون معه (سيد أبو غزالة).

كان يكره جلسته المقرفصة فى دكان أبيــــه، يــرف الملابس الممزقة. أبوه كان يفخـــر بــه أمــام المعلميــن - زملائه- بقدرته على إخفاء القطع فى الملابس. يتحداهم أن يستطيعوا معرفة مكان التمزق الذى رتقه ابنه. رغم هذا كان سيد يكره تلك المهنة. لكنه خاف من أن يغضب أبوه عليه.

يوم الأحد يغلق الدكان، يذهب مـــع أصدقائـــه إلـــى القهوة. ثم إلى السينما ينفق كثيرا، فطوال الأسبوع يقضــــى وقته بين البيت والدكان. لا ينفق شيئا حتى الشاى - الـــذى يشربه - فى الدكان - يدفعه والده.

بعد موته أحس أنه عفريت قد خرج من القمقم؛ الذى سجن فيه طويلا.

كل أمله أن يتعلم قيادة السيارات. أن يركب ســيارة ضخمة بمقطورة. ويدخل بها غربال. شتان بيـــن الجلســة المقرفصة فى الدكان. والحركة المجنونـــة فـــى الســيارات الضخمة. لذلك كان يركب الأتوبيس كثيرا يوم الأحد. يفرح لو طلـــب أبوه منه أن يذهب بكمية من ملابس إلـــى تــاجر بعيد. يركب التاكسى، ويضع الملابس بجواره. ينظر طوال الطريق - إلى السائق وحركات يديه وساقيه. تعلم القيادة فى مـــدة قصيرة جدا. وقتها لم يكن مشغولا بشــــيء ســواها. حتى نايه وغنائه نسيهما، ثم التحق بشركة الأتوبيس. اكتشف سيد حليمة بعد وقت طويل.

فـــى حياة أبيه لم يكن يعرف ســـوى أهــل البيــت. تركية وزكية وجميلة.

رأته حليمة يغنى فى إحدى الحفلات، كانت تجلس قريبة منه. قالت له :

- أنا جارتك. أسكن فى بيت قريب من بيتك.

رآها بعد ذلك تنظر من شرفتها. حدثها. ودخل بيتها. أمه تقول إنها بنت "ملعب"، وليست خالصة له، لم يصدقها - فهى - رغم أنها عالمة. إلا أن قلبها خالص له. هكذا تقول له دائما.

يصفر الكمسارى له ليوقف الأتوبيس. لأن راكب فاتته محفظته. لكن سيد لا يسمع، يصحو فزعا على أصوات الركاب. وصوت الكمسارى :

- أسطى سيد، بربك كن معنا ودعك من الفن الآن.

* * *

سار بخيت بعصاه الرفيعة الطويلة ناحية سوق العطارين. حيث تباع الملابس المستعملة. وحيث يوجد دكان فايقة (أم سيد). يذكر بخيت عندما أتى سيد به وتوتو إلى هنا. وأعطاهما بذلتين ليحضرا الحفل.

سأل رجل، أراد يساعده لعبور الشارع :

- أريد سوق العطارين.

- إنه أمامك الآن. ماذا تريد منه ؟

- دكان المعلمة فايقة.

أخذه الرجل إلى هناك + كانت تجلس فى الداخل. وهريدى - لدى زوجته (أم أولاده)، صاح عامل يحيك الملابس :

- يا معلمة، رجل يطلبك.

حضرت فايقة، وجدت بخيت أمامها :

- أهلا بك، تفضل.

- تذكرينني ؟

- أجل. أتيت مع سيد لشراء بذلة.

- أريد بذلة على مقاس توتو أتعرفينه ؟

- ذلك الذى سيتزوج ابنة تركية ؟

- أجل.

- أعرفه تماما، فهو صديق سيد ابنى.

- الولد غريب. وسيتزوج الخميس القادم. ولابد له من بذلة مناسبة.

نادت على عامل لديها ليتبعها إلى المخزن.

حمل بخيت البذلة، وأعطته فايقة قميصا وكرافتة مناسبين للبذلة.

تغير الحكش كثيرا منذ أن انضم إلى فرقة الفنانين. كان قبل ذلك يعود من عمله متسخا. ينام فوق كنبته بملابسه التى تفوح منها رائحة الزبالة، يغتسل - بعد ذلك - ويرتدى ملابسه. يذهب إلى دكان "سويلم الحلاق" صديقه يجد بعض أصدقائه فى انتظاره. يجلسون خارج الدكان، سويلم شديد الشبه بإسماعيل يس، لذلك يقلده فى كل حركاته. يغنى مونولوجاته، ويردد نكاته ..

يقص للزبائن ويتحدث مع أصدقائه فى نفس الوقت. بعد أن يغلق الدكان، يذهبون - أحيانا - إلى حفل يسهر للصباح. يحششون فيه. سويلم هو نجم هذه الحفلات. يرقص ويغنى. يصر المدعوون - الذين يعرفونه - على أن

يصعد إلـــى المسرح ليغنـــــى. يغنــــى ســـويلم : خطبوهـــا اتعززت. وسابوها اتعنست.

مرة فى مرة تجرأ الحكش وصعد إلى المسرح. غنى أغنية من أغنيات عزت عوض الله.

إن لم يكن هناك حفل يسهرون خارج الدكان. أو فى أحد المقاهى.

يدور الحديث عن النساء والحشيش والزبالة. فـــلان وجد قطعة ذهب فى الزبالة وآخر وجد ملعقة فضة.

يقابل الحكش حربية أحيانا. تأتيه مرتديـــــة فســتانها الشفاف الوردى الذى تذهب به إلى الحفلات.

أهل حربية يعاملونه كخطيب لها. رغـــــم أنـــه لــم يخطبهـــا. يذهبان إلى سينما "الجمهورية" أو سينما "ســـــتار" فى محطة مصر.

أثنــــاء الفيلم الأفرنجى يهمس فى أذنها بكلمات الحب. فهما لا يعرفان قراءة الترجمة على الشاشة. تسمع حربيـــــة دون أن تجيب. فهى مشغولـــة بـــاللب والســـودانى اللذيـــن يشتريهما لها. لكن أثناء الفيلم العربى يعتدلان فوق مقعديهما. يتابعان الفيلم فى اهتمام.

لـــم يغن الحكش سوى فى الحمام. أو فى الأفـــراح إذا ما وصل السكر مداه لكن تجربة سيد وتوتو أعجبته.

والده تزوج الكثيرات. آخرهن أمه. أخوته كثيرون. محمود الذى يمتلك شونـــة الـــورق، والضـــانى العجلاتـــى، وعزوز البقال، غير اشقائه من أمه الذين يعيشون معه.

أولاد أخوته – الآخريـــن – بعضـــهم أكــبر منــه. وبعضهم يشاركونه جلسات الحديث أمام دكان سويلم الحلاق.

الحكش رغم قامته القصـــيرة – وســيم – وعندمــا يرتدى بذلته الزرقاء – ذات الأزرار الذهبية – تتمناه أى فتاة فى غربال، يسكن – الآن – مع باقى الأسرة الكبـــيرة فـــى حجرتين – داخل شقة، بعد أن كان أبـــوه يمتلـــك عشـــرات البيوت، تدفع أمه إيجار الحجرتين إلى أم يوسف– صاحبـــة البيت – والتى تشاركهم الشقة. أم يوسف تكـــبره بســـنوات كثيرة. أتته مـــرة فى حجرته وهو نائم، صحا مـــن نومـــه فجأة، وجدها أمامه كان بفانلته السواريه، التى تكشـــف عـــن عضلات ذراعيه، وشعر صدره الكثيـــف. والعـــرق الـــذى يعطى لجسده الأسمر بريقا.

قبل أن تتحدث المرأة دخلت أخته "كاملـــة" وبعـــض النسوة من سكان البيت، كن يتابعنها، قلن لها :

– ماذا كنت تريدين منه ؟

ارتعشت، المرأة صعيدية، وأبناؤها أشداء، قالت :

– كنت أريد أن أسأله عن ملعقة أم شوكة.

ضحكـــت النسوة فى خلاعة وخرجن + وخرجـــت هى خلفهن كسيفة.

كل نساء البيت يسألنه عـــن الملاعـــق والســـكاكين والشوك التى يجدها فى الزبالة لكن هذه المرأة لم تسأله عـــن هذا، منذ ذلك الحين والمرأة كسيفة. إذا ما تشـــاجرت مـــع أخرى، قالت لها الأخرى :

– كنت تريدين من الحكش ملعقة أو شوكة ؟

هو وحده الذى لا يستطيع أن يتحدث معها. فمنذ ذلك الحين وهى تعامله بجفاء. كما لو أنه سبب ما أصابها. إذا ما رأته مارا أمام بابها أغلقته فى عنف وإذا ما كانت تقف على باب البيت ورأته آتيا من بعيد. دخلت مقطبة وجهها. بعد زيارتها له فى الحجرة، حلم بها وتمناها - رغم أنه قبل ذلك لم تكن تخطر له على بال. فالمرأة - رغم كبر سنها - مازالت تمسك نفسها. وتهتم بزينتها.

حربية لم تزر أمه أبدا. رغم أنها تسكن الحارة المقابلة لحارتهم. لكن الكل يعلم أنه سيتزوجها. تردد أمه للنسوة فرحة، خاصة بعد علمها بما فعلته أم يوسف :

- ولدى، النسوة ترغبه. ولابد أن أزوجه قبل أن "تلوف" به واحدة وتفسده.

أبوه لا يهتم به ولا بغيره، لا يترك نافذته إلا لقضاء الحاجة. أو الطواف فى حوارى غربال باحثا عن نتف القطن.

أحيانا يتشاجر الحكش مع شقيقه الأكبر، أو الأصغر. وتصرخ أمه فيهم غاضبة. صارخة أحيانا، رغم هذا أبوه لا يلتفت إليهم. اعتادوا - هم - فيه هذا.

حربية ودكان سويلم الحلاق، كانا الشيئين اللذين يهرب بهما من ذلك العالم. لكن الآن حاله تغير. وأصبحت هناك أشياء أكثر أهمية، تنسيه همومه فى البيت، وجسد أم يوسف الذى يحلم به كثيرا. وتنسيه حربية وسويلم الحلاق أيضا. هذه الأشياء هى سيد وفرقته، ورغبته فى أن يتعلم العزف على الآلات مثلهم. ولو حتى الطبلة والرق فقط.

يصل إلى الشونة - الآن - يحصل جونية الورق فوق ظهره القوى + يرميها علي الترناطة + ثم تأتيه حربية مسرعة. يقول لها :

- أريد أن أرجع للبيت مسرعا.

ويسرع بعربته. تقف هى على باب الشونة غاضبة. تراه وهو يضرب حماره باللجام ليسرع.

تردد لنفسها :

- لابد أنه "لاف" على واحدة غيرها.

تتابعه أم يوسف من خلال بابها الموارب. تدهش من بذله التى كثرت هذه الأيام. وخروجه بعد عودته من العمل بوقت قصير. ثم رجوعه إلى البيت عند الفجر أو بعده.

الأولاد - أعضاء الفرقة فاجأوه بما فعلوا - غنوا وعزفوا ورقصوا. عفاريت. لم يكن يظن أن ما حدث سيحدث، أن تحيى الفرقة حفلاتها فى غربال. فيبدو أمام الجميع وكأنه رئيس الفرقة.

- نريد فرقتك يا حكش. نريد فرقتك يا حكش.

تردد ذلك فى الحى، قابله قريب له، قال غاضبا :

- ألا تستحى ؟ أبوك كان يمتلك نصف بيوت الحارة. وأخوتك للآن أغنى ناس فى الحى كله.

صرخ فيه غاضبا :

- أنا حر فيما أفعل.

وقفت حربية أمام العربة هذه المرة :

- لن أبعد عنها حتى لو مزق حمارك جسدى.

هبط إليها مضطرا :

- ماذا تريدين ؟
- أعرف ما الذى أبعدك عنى.
- مشغول.
- امرأة جديدة ؟
- لا. أغنى الآن فى الأفراح.

لم تصدقه إلا عندما رأته فى أول حفل تحييه الفرقة فى غربال.

* * *

من يومين لم أترك الكوخ إلا لقضاء حاجتى فى شقة زكية.

بعد أن عدت من لدى المأذون. بكيت فى الكوخ وحدى. لقد أرادت تركية أن تمثل بى. أن تجعلهم يشدوننى من بيتها إلى قسم الشرطة، متهمة إياى بأننى .....

لا أدرى ما الذى كانت ستقوله هناك. لكن ذلك أرحم من أن يشدونى من ملابسى المتسخة تلك إلى بيت أبى. فترانى بسيمة. وباقى الجيران فى وضعى هذا. ويسمعون أقوال تركية، لاشك أن الأسرة كلها ستعرف، كريمة ابنة دولت - خالتى - ودولت وجدتى العجوز التى تحبنى أكثر من أى إنسان آخر.

ستردد الأسرة كلها دهشة :

- تيمور المدلل الذى تنبأ أبوه بأن يكون أديبا كبيرا. وأمه بأن يكون موسيقيا مشهورا. يتزوج ابنة تركية. وبهذه الطريقة المهينة.

وأنا أخرج من شقة زكية - بعد أن قضيت حـــاجتى فى دورة المياه. رأيت جميلة أمامى. كانت باهتـــة، وآثــار دموع فى عينيها، أردت أن أصعد الـــدرج دون أن أحدثـــها. قالت :

- انتظرتك كالعادة فى اليومين السابقين.

لم أجبها، سرت أمامها، صعدت درجة من درجـــات الدرج. أمسكت يدى :

- ألا تريد أن تحدثنى ؟

- كفى ما حدث.

- توتو. أننى أحبك. لو كان زواجى سيسبب لك ألما. لـــن أجعله يتم. ولو ضغطت أمى على، سأهرب من البيت كله.

- دعينى، إننى متعب.

- لولا وجود بخيت بالكوخ لكنت صعدت إليك.

صعدت الدرج، وهى مازالت تتابعنى فى أسفل.

دققت باب الكوخ. قال بخيت من الداخل :

- ادخل.

سرت دون أن أحدث صوتا. قال بخيت :

- توتو، إلى متى ستصمت هكذا ؟

- ماذا تريد يا بخيت ؟.

اقترب منى.

أقترتب منه. امسك بلفافة وقدمها لى :

- امسك هذه.

- ما هذا ؟

- افتح اللفافة.

فتحتها فى ضيق. وجدت بذلة سوداء وقميصا وكرافتة. كانت جميعا مستعملة.

- ما هذا ؟

- ملابس. لتحضر بها حفل زفافك.

حملت اللفافة وسرت. البذلة التى أخرج بها - الآن - قديمة. وشاءت الظروف أيضا، أن أتزوج ببذلة قديمة مشتراه من سوق العطارين المخصص للملابس المستعملة.

ارتميت فى آخر الكوخ. اندفعت على الصفيح الصدئ. قطعة منه ناتئة، مزقت قميصى الذى ألبسه، وجرحت ظهرى. بكيت بصوت مرتفع. كان ذلك البكاء يشبه أحلامى المتكررة التى أبكى فيها وأنا نائم بصوت مرتفع.

- توتو. أجننت. ما الذى يبكيك ؟

اقترب منى. كان يرتدى سرواله الريفى. وصديرية وفانلة بنية اللون بأكمام طويلة. يرتديها تحت الصديرية.

أمسك يدى :

- أنت ضعيف، لو لم تكن ضعيفا ما فعلت تركية بك ما فعلت. أجل. وجدتك ضعيفا فتمادت. وأصرت أن تتزوج ابنتها.

بكيت ثانية :

- وماذا أفعل ؟

- دع البيت، عد لبيت أبيك.

- سيتبعوننى إلى هناك ويفضحوننى.

- الفضيحة أهون من الذل.
- لا. لن أستطيع أن أفعل شيئا. كما أننى لن أستطيع أن أطلقها بسهولة.
- تستطيع والدك أن يدفع لك المبلغ المستحق عليك.

لم أجبه. أحسست أن ما يقوله بعيد المنال. جميلة حسنة فى كل شئ. تمنيت أن أتزوجها قبل أن تأتى إلى الكوخ ذلك المساء. فلماذا الحزن والغضب الآن. لقد كنت مبهورا بما أرى فى غربال، فلماذا لا أعتبر زواجى منها مغامرة جديدة أيضا.

(٩)

اتفق سيد مع كهربائى فى الحى، ليضع اللمبات فوق شرفة زكية. ولمبات كبيرة تضىء مدخل البيت. وجلست جميلة وسط المدعوين من بنات وسيدات الحارة غنت بعض الفتيات ورقصن. كان توتو يرتدى البذلة التى اشتراها له بخيت من دكان فايقة. واصطفت الفرقة فوق كنبتى تركية، المغطيتين بكليم زكية.

لم يكن سيد معهم. فهو مشغول بالإعداد للحفل كله. سيارة الأتوبيس تقف داخل الحارة. ذهب بالنسوة والبنات إلى الكوافير، كن يرقصن ويغنين داخل السيارة.

حليمة العالمة تجلس فى أسفل. فى الصف الأول من المدعوين. أصرت ألا تشترك فى إحياء الحفل. حاول سيد معها كثيرا. لكنها ادعت المرض .. كانت غاضبة من جميلة وأسرتها. كيف يستأثرون بالولد ويأخذونه ؟

ابتسمت لها جميلة من مكانها. لكنها لم ترد ابتسامتها. تتباعها حليمة باهتمام، فستانها الأبيض والطرحة لا تليق عليها. ما الذى يعجبه بها، حقيقة هم

خدعــوه، جعلوه يتزوجها بالخداع. لكن الولــد - أيضــا - كان على علاقة بها، ترك كل بنات الحارة وأحبها هى.

كان توتو يتحرك بخفة، يبتسم لكل من يحدثه. جميلة تتابعه فى حب، إذا ما غاب عن عينيها تبحث عنه حتى تلقاه.

غنى بخيت بصوته الجميل، صعدت فتـــاة قريبـــة لتركيـــة، رقصت - دون بذلة رقص. ازدادت حليمة غمـــا، فالفتـــاة ترقص بطريقة جيدة. حليمة تود أن ينتهى الحفـــل دون أن ترقص راقصـــة، حتـــى تذكر جميلة طـــوال عمرهـــا، إن حفلها لم يكن به عالمة واحدة.

كان ياسين يدق الطبلة، وزكية تتابعه فى ابتسام مـــن بعيد، الفرش ليس به أحد حتـــى طفلتـــهما الصغـــيرة بكـــت وأصرت أن تحضر حفل خالتها.

ثم غنى صبحى ورقـــص علـــى المســـرح، ســـمع المدعوون صوت مزيكة حسب الله، قالت إحداهن :

- فرقة أحمد أفندى.

ابتسم صبحى السورى لجميلة قائلا :

- أحمد أفندى عندمـــا علم أن أحد أفراد فرقتنـــا ســـيتزوج أصر أن يأتى مجاملة لى.

قفز صبحى من فوق الكنبة، وأسرع إلـــى الشـــارع، تبعه توتو. كانت فرقة أحمد أفندى تســـتعد للجلـــوس علـــى المقاعد المتراصة. أسرع صبحى إليه صافحه وقبله.

أحمد أفنـــدى شاب صغير وســـيم. جســـده نحيـــل. البذلة فوق جســـده مشدودة. وكأنـــه ضـــابط فـــى طـــابور

عرض. جلس صبحـــى بجواره. أول مرة يجلس صبحـــى مع الفرقة بملابسه العادية. قال له أحمد أفندى :
- إننى معجب بفرقتكم، لهذا رشحتكم لإحياء حفـــل بعـض معارفى فى الرمل، ما رأيك + ؟
هلل صبحى فرحا ؟
- يكفى رأى سيادتك فنيا.
أعطاه أحمد أفندى ورقة بها اسم وصاحب الحفل.

*　*　*

بعد ذلك ركب معظم المدعوين مع توتـــو وجميلـة الأتوبيس. وذهب سيد بهم إلـــى البحـر. كـانوا يغنــون ويرقصون داخل الأتوبيس. لم يتبق فى البيت سوى بخيـت وفايقة. حتى تركية وزكية وياسين ذهبوا معهم.

اقتربت فايقة من بخيت وقالت :
- بخيت، ما الذى يجلسك وحدك ؟

كان يجلس وسط المقاعد الكثيرة الخالية والمتراصة :
- سأنتظر توتو حتى يعود.
- تعال، لترتاح فى شقتى.
- لا سأنتظره هنا.

كان عامل الفراش يجمع المقاعد ليعود بـــها، قـالت فايقة :
- دع هذا المقعد. وتعال لشقتى.

سار معها، أمسكت يده لتساعده على المـــرور بيـن المقاعد المتناثرة. والموائد والمخلفات الملقاة.

جلس بخيت محنيا رأسه فى حزن. تزوج توتو ابن الناس، وطالب الهندسة هكذا، دون أن يحضر زفافه واحد من أقاربه.

الولد "سرقاه السكينة"، وعندما يفيق سيصدم صدمة كبيرة. قالت فايقة :

- ماذا بك، فى أى شىء تفكر ؟

- لقد تعودت على الباشمهندس، لا أدرى كيف سأتحمل الكوخ بدونه.

- لا تهتم. كان سيفارقك آجلا أو عاجلا.

صمت ولم يرد عليها، قالت :

- أعد لك شايا + لا. سأعد لك العشاء + أنت لم تتعش.

- لا أريد شيئا.

- سأعد لك شايا إذن.

صمت بخيت. عاد لانحنائه. قالت له من بعيد :

- الولد سيد ابنى يحب حليمة العالمة ويريد أن يتزوجها.

- على خيرة الله.

- كيف ؟. إنها عالمة وسيرتها بطالة.

لم يرد عليها. انشغلت بالشاى للحظات. ثم عادت دقت الأرض بشبشبها، حتى يحس بها :

- وأنت، لماذا لم تتزوج ؟

ضحك :

- من سترضى بضرير مثلى ؟!

تلعثمت :

- كثيرات. وما الذى يعيبك ؟!

سمعت فايقة ضجة فى الخارج. ثم صوت كلاكس سيد المرتفع جدا.

أحست بالخوف من تركية وابنتها زكية. سيظنان بها السوء الآن. فكلما حدثت رجلا. ظنتا أنها تغويه ليتزوجها.

خرجت إليهم :

- أهلا بالعروس. جميلة وأنت جميلة.

قال بخيت من الداخل :

- عاد توتو ؟

لم يجد أحدا يرد عليه. فأسرع إلى الخارج، تسبقه يده. كان توتو قد دخل وجميلة الحجرة التى أعدتها تركية لإقامتهما فى شقتها.

كان الحفل فى حديقة بيت كبير فى الرمل، ليس به بيرة ولا حشيش، ولا نقطة، مقاعد كثيرة متناثرة. فوقها الجاتوه وزجاجات القازوزة.

غنى الحكش فى الأول :

يا زيد فى الحلاوة عن أهل حينا ما تبطل الشقاوة وتعالى عندنا

لم يلق غناؤه استحسانا. صفقوا له بفتور. ثم قدم سيد توتو فى وصلة موسيقية من العزف المنفرد على آلة الكمان.

وقف توتو أمام المسرح. مازال يرتدى البذلة التى اشتراها له بخيت. عزف "النهر الخالد" أحس بحنان وهو يعزف هذه المقطوعة. نسى نفسه. لدرجة أنه بكى وهو

يعزف. صفق له الحاضرون بطريقة لم تعتدها الفرقة في وصلات الموسيقى.

ابتسم سيد وأحس الحكش بالضيق، ففي الأفراح الأخرى كان استقبال الجمهور له أكثر حماسا من استقبال وصلات الموسيقى.

عزف توتو مقطوعة أخرى وأخرى. وعاد إلى مكانه سعيدا بجوار بخيت. ربت بخيت فوق ظهره وابتسم دون قول.

ثم غنى بخيت، كان صوته الدافئ الحزين يشمل البيت كله. كف الحاضرون عن الحديث. النسوة ينظرن من النوافذ + واحدة منهن قالت :

- إنه أعمى.

كان توتو يعزف خلفه. وطبال آخر (غير ياسين) يدق طبلته، وعبده فاكهة "يقسم" على أكورديونه سعيدا بتجاوب الحاضرين مع المغنى والموسيقى المصاحبة له.

صفق الناس له طويلا. قام أحد الجالسين، اقترب من المنصة. حدث سيد القريب منه :

- إننى أشرف على الغناء والموسيقى فى الإذاعة. وأريد أن يأتى بخيت. وذلك الذى كان يعزف على الكمان إلى الإذاعة.

فرح سيد كثيرا :

- أجل. أجل. سأحضرهما لسيادتك.

أخرج الخضرى بك كرتا. وأعطاه لسيد. وعاد إلى مكانه. قال الحكش لمن حوله ضجرا :

– حفل سيئ للغاية. قل لى أغنى لمن ؟ ليس فى الحفل "معازيم" كلهم جادون للغاية. كما أنهم لم ينقطوا، أول مرة أرى حفلا بدون "نقطة".

وافقه البعض على رأيه. قال سيد فرحا للفرقة كلها :

– الخضرى بك. مسئول الغناء فى الإذاعة يريد مقابلة بخيت وتوتو فى الإذاعة.

قال الحكش :

– ماذا لو ذهبنا جميعا ؟.

قال سيد :

– لكنه اختارهما بالاسم.

– لن يضر. نذهب كلنا. وتسمعنا اللجنة وتحكم.

قال صبحى السورى :

– أجل. فلنفعل هذا.

* * *

وصلت الفرقة كلها للإذاعة. جلسوا جميعا فى الطرقة الطويلة بجوار الأستوديو.

خرج الخضرى بك إليهم. دهش لوجودهم جميعا.

قال معتذرا :

– لن أستطيع أن أستمع الآن إلا لبخيت وتوتو. وسأحدد لكم موعدا آخر.

ابتسم سيد قائلا :

– ليس مهما. المهم أن ينجحا فى الاختبار.

أمسك بخيت ذراع توتو وباليد الأخرى أمسك توتو الكمان.

قال الحكش غاضبا :

- لماذا هما الاثنان فقط ؟

قال صبحى :

- مادام أصحاب الحفل معارف أحمد أفنـــدى. فلابـد أنــه يعرف الخضرى بك أيضا. لهذا سأحدثه، وسأدخلكم الإذاعة جميعا.

ردد عبده فاكهة فى نفسه :

- أضاع بخيت على فرصة العمر. ماذا لو قال لخضرى بك أننى لا أعرف الغناء إلا على أكورديون عبده فاكهة.

سمعوا بعد ذلك - مـــن خـــلال البـــاب المـــوارب للأستوديو - أصوات غناء، أحـــس سـيد بكمـان توتــو. يستطيع أن يميزه من بين ألف كمان يعزف.

لم يستغرق هذا كثيرا، فقد فتح باب الأستوديو وخرج توتو ممسكا بذراع بخيت، وخلفهما الخضرى بك مبتسما :

- اللجنة كلها أعجبت بهما. سنحدد لهما موعــدا للتســجيل. وسأحدد لكم موعدا للاختبار. سيبلغكم به بخيت وتوتو.

عادوا إلى بيوتهم. مازال صبحى يؤكـــد أن أحمـــد أفندى سيحل مشكلتهم جميعا. أما الحكش فقال معاتبا بخيت :

- لو قلت كلمة واحدة للخضرى بك. لكان سمعنا كلنا اليوم.

قال سيد غاضبا :

- لقد سمعك الخضرى بك فى الحفل قبلهما، لا تنس هذا.

- ولو، إن كان غنائى لم يعجبه. فقد يعجب بـــاقى أعضـــاء لجنة الاستماع.

قال بخيت :

- كل واحد ونصيبه. اطمئن يا حكش. لو لك نصيبا فى الإذاعة ستدخلها.

* * *

عاد سيد متعبا. العمل فى الأتوبيس يرهقه. كما أن الحفلات ازدادت هذه الأيام منذ ان انضم إليهم بخيت وتوتو.

ابتسم وهو متسلق فوق فراشه. سيغنى بخيت فى الإذاعة. وسيعزف توتو فى فرقة الإذاعة أيضا. وهو رئيس الفرقة كما هو، لا بأس، فكل شيء آت فى موعده.

البنت جميلة وجهها كان حسنا على توتو.

فايقة - أمه - خلعت المنديل الذى كان يحيط برقبتها منذ أن هجرها هريدى. وصوتها الضعيف الممزوج بنحيبها عاد إلى ما كان عليه.

حدثته عن حفل جميلة. شرد. حليمة العالمة كانت غاضبة وحزينة. لا لم تكن مريضة كما ادعت. ما الذى حدث لها وغيرها هكذا. لم تعد تستقبله بحب كما كانت تفعل من قبل. حتى عندما أبلغها عن حفل الرمل لم توافق على حضوره. قالت :

- مازلت مريضة.

لكنها كانت جميلة فى حفل توتو وجميلة. مكياجها الخفيف وشفتاها الممتلئتان تلمعان.

قال سيد لأمه :

- لقد نجح بخيت وتوتو فى امتحان الإذاعة.

- وماذا بعد ذلك ؟

- سيغنى بخيت فى الإذاعة. وتوتو .....

صاحت فرحة :

- حقا ؟

- أجل. وسندخل الإذاعة خلفهما. مادام دخلها اثنان من الفرقة فسيشدان الباقى وراءهما.

ذهب سيد إلى حليمة العالمة. لابد أن يعرف ما الذى غيرها هكذا.

أسرعت فايقة إلى الخارج. اشترت زجاجتا شربات وعلبة حلوى وصعدت مسرعة إلى السطوح. دقت الباب وهى تنادى :

- أستاذ بخيت.

يعرف صوتها جيدا، قال :

- تفضلى يا ست فايقة.

- جئت لأهنئك. الولد سيد قال لى .....

- تفضلى.

مدت ما بيدها :

- شربات وحلوى. حلاوة دخولك الإذاعة.

- ليس هناك داع لهذا.

- بعد إذنك سأبل الشربات وأقدمه للحارة كلها.

وهبطت مسرعة كطفلة صغيرة. ردد بخيت لنفسه سعيدا :

- هذه المرأة تحبنى.

* * *

لم تفهم تركية شيئا مما يحدث. فايقة تدخل عليها فرحة. تحمل أكواب الشربات الأحمر وتزغرد :

- ألف مبروك لزوج ابنتك.

- من ياسين، كسب البريمو.

- لا، توتو نجح فى امتحان الإذاعة هو وبخيت.

تركت فايقة الشربات وعادت إلى شقتها، تركية للآن لم تفهم شيئا.

الولد توتو منذ أن تزوج ابنتها وهو لا يحدثها إلا كلمات قليلة جدا. لو كان ابن ناس حقا - كما يقولون - لكان قدر ما فعلته من أجله. لقد أعطيته حجرة من شقتى، وزوجته جميلة - أجمل بنات الحارة - ومازلت أعد له طعاما ليل نهار منذ أن تزوج. ماذا يريد أكثر من هذا، ولماذا يهرب منى ويهرب إلى حجرته كلما رآنى فى الخارج ؟!

ليس مهما، المهم أن يظل زوجا لابنتى. ويعود لأهله بها. ويرث ما تركته له أمه. أجل. يقولون أنها تركت له أشياء كثيرة، وأبوه يتحكم فيها. دقت تركية حجرة جميلة قائلة :

- افتحى يا جميلة لتشربى شربات زوجك.

فتحت جميلة الباب. خرجت بقميصها العارى :

- ماذا حدث يا أمى ؟

خرج توتو خلفها :

- لماذا لم تخبرنى أنك نجحت فى الإذاعة ؟

لم يجبها توتو. قالت جميلة فى دهشة :

- أية إذاعة ؟

- زوجك نجح فى امتحان الإذاعة.

- من قال لك ؟

- فايقة المجنونة.

أعطتها تركية الشربات. وخرجت إلى الشارع لتجلس أمام البيت.

قال جميلة لتوتو :

- لماذا لم تقل لى عن هذا ؟

دخل حجرته وهو يقول :

- كنت سأقول لك.

لم يكن سعيدا. الإعجاب بعزفه ليس جديدا. أبوه وأمه كانا يعجبان بذلك وكذلك أساتذته فى المدارس والكلية. ما الذى سيحدث بعد أن يعملا فى فرقة الإذاعة، خلف المطربين والمطربات. ومشاكله الأخرى كما هى هروبه من بيت أبيه + والكلية التى لا يهتم بها. وزواجه هذا الذى سيكون حديث الأسرة لأعوام كثيرة قادمة.

ما سيأخذه من الإذاعة. هل سيكفى أعباء زواجه هذا. حتى لا يعود إلى أهله أبدا.

قالت جميلة :

- أستظل شاردا هكذا ؟!

ابتسم رغما عنه.

* * *

كانت حليمة العالمة تقف فى الشرفة كعادتها. عندما رأت سيد يدخل البيت دخلت. قالت لأمها :

- سيد ابن فايقة يدخل البيت.

- قلت لك يا حليمة لا تضيعى الولد من يديك وهريريدك. ولو اهتم بالدكان سيأكل منه الشهد، لا تضيعيه.

لم تجبها حليمة. الذى ضاع منها هو توتو، طـــالب المدارس.

قالت أم حليمة :

– أهلا سيد، أين كنت ؟، لماذا لم تعد تزورنا كما كنت ؟

– انشغلت بزفاف صديقى. كما إننا أحيينا أكثر من حفل.

أسرع إلى حليمة.

– كيف حالك الآن ؟

ابتسمت رغما عنها :

– أحسن.

قالت الأم :

– كانت مريضة منذ أيام. لكنها فى خير الآن.

– لم تذهب إلى الحفل الذى أحييناه.

المرأة تكذب، فهى تحاول أن تخفف من تأثير أفعـــال ابنتها معه.

حليمة تبتعد عنهما.

– لقد كان فى الحفل المشرف على الغناء والموســيقى فــى الإذاعة. وعن طريقه دخل بخيت وتوتو الإذاعة.

صاحت رغماً عنها

–توو دخل الإذاعة؟!

– نعم، إعتمدوه عازفاً فى فرقة موسيقى الاذاعة

ابتسمت، **أحست أمها أنها تفكر فى توتو. قالت :**

– ربما لو ذهبت يا حليمة كان اختارك أنت أيضا.

قال سيد مازحا :

– لتتعلم ألا ترقص حفلا تحييه فرقتى.

قالت حليمة :

- كيف حال جميلة ؟
- خير، لعلها سعيدة الآن لأن زوجها أصبح عازفا في الإذاعة.
- ستعمل في الفندق كما كانت ؟
- لست أدري.
- إن لم تعمل. فكيف ستأكل هي وزوجها ؟. أم تفكر في الذهاب لأهله ؟
- لست أدري.
قالت أمها في ضيق :
- ما شأنك بجميلة وتوتو. دعيهما في حالهما.
قالت حليمة له :
- أي حفل يأتي إليك. قل لي عنه.
عاد إلى شقته. وجد أمه "تقلب" الشربات بالماء والسكر والثلج. **قال :**
- ماذا تفعلين ؟
قالت مرتبكة :
- شربات. سأوزعه على أهل الحارة لأن بخيت دخل الإذاعة.
أحس بما تريد :
- وما شأنك انت ؟
- الرجل ضرير ومسكين. ويستحق الحسنة وأيضا من أجل صديقك الغريب الذي ليس له أحد يفرح من أجله.
أراد أن يضرب الإناء بقدمه. وأن يضربها هي. وأراد أن يرتاح من العناء، فنام على الكنبة بجوار إناء الشربات.

(١٠)

عادت فايقة إلى ما كانت عليه من قبـــل أن تـــتزوج هريدى. ارتدت ملابسها التى تظـــهر ذراعيـــها ورقبتـــها. وتكحلت. وسارت تلوك "اللبان" فى الشارع.

لم تعد ضعيفة أمام هريـــدى. كـــان يجلـــس علـــى المكتـــب. عندما رآها تظاهر بالجديـــــة. قطـــب جبهتـــه. وصاح فى ولد يعمل بالدكان. أن يأتى له بفنجان قهوة ليعدل رأسه.

رمت فايقة حقيبة يدها وصاحت به :

- لو سمحت.

قال فى تثاقل صائحا بها :

- ماذا تريدين ؟

صاحت فيه بصوت أكثر علوا :

- المكتب. مكانك ليس هنا. مكانك فى "الرفا".

صاح مندهشا :

- فايقة. أجننت ؟

- اسمـــى المعلمة. ولا تزد. أنا من أجل أولادك لا أريد ان أقطع عيشك.

- لهذه الدرجة يا فايقة؟!.

صرخت فيه :

- اسمى المعلمة. ولا تجعلنى أسبك.

لم يرد. نظر إلى العمال. وجدهم يتابعونـــهما فـــى دهشة واهتمام. خرج من الدكان. صاحت فى العمال :

- ماذا تفعلون ؟. كل واحد يعود لعمله.

جلست فوق المكتب. منذ وقت طويـــل لـــم تجلـــس جلستهـــا تلك. أذلها هريدى. زوجها الأول - والد ســـيد - لم يكن يفعل بها هذا. رغم علمه بحاجتها للجنس. كان يلبى طلباتها دون أن يتخذ من ذلك ذريعة لإذلالـــها. مصمصـــت شفتيها، ورددت فى نفسها "الله يرحمه".

ما الـــذى غيرها هكذا. لقد كانت ترتعش عندما ترى هريدى غاضبا.

ابتسمت فى سعادة، نظرت إلـــى العمـــال وجدتـــهم مشغولين بعملهم. لم يلمحوا ابتسامتها المفاجئة. لقد كـــانت تسمح لهريـــدى أن يجلس فوق مكتبها. ويقوم بدور المعلـــم فى الدكان. حتى وهى مطلقة. على أمل أن يردهـــا ثانيـــة. لكنها اليوم لا تهتم به.

ذلك الضرير بخيت .....

ابتسمت ثانية رغما عنها فى حياء + لماذا لم تحس به من قبل. لقـــد أخذ سيد ملابس له وللولد توتـــو - صديـــق سيد. ورأته أمامها فى الدكان. كان وقتها هريدى يشغلها.

الرجل الضرير جسده مصحح. كمـــا أن عينيـــه لا تحس بهما عمى. آه. منظره بالبذلة كالمدير. ستشترى لـــه نظارة سوداء. حتى تزداد صورته اكتمالا.

سألها عامل عن قميص قديم كان يرتقه. أجابته فـــى ضيق.

يقولون أن العميان لديهم قدرة جنســـية كبـيرة. لا تدرى لماذا ؟. ربما لأن الرؤية تستنزف جهدا كبــيرا مــن المبصرين.

ليس مهما السبب. المهم أن يتزوجها. إنه صديـــق سيد. فلمـــاذا لا يدعوه لشقتها كثيرا خاصــة وهــو يســكن الكوخ بمفرده الآن. بعد أن تزوج توتو.

* * *

ذهبــت حربية إلى بيت الحكش. لن تهتم بما يقولونه عنها. المهم أن تقابله. إنه يرسل العربة مــع عمالــه. ولا يأتى إلى الشونة. يهرب من مقابلتها ..

استقبلتها أمه بجفاء. رددت داخلها :

– أتجرؤ أن تأتى خلفه للبيت ؟

قالت أخته ضاحكة وساخرة :

– ابنك جذاب. كل النسوة يعجبن به.

– لعنة تلعنه.

أم يوســف – صاحبة البيت – رأت حربية تدخـــل. لم تستطع أن تغلق بابها.

فتحته على مصراعيه. وأطالت النظر إليــها. لقــد رأتها مرات قليلة فى "الأفراح" التى يحضرانها معا.

رددت أم يوسف فى أسى :

– ناشفة، وليس بها ما يغرى. لكن الحكش .....

لم تكمل لنفسها. فيكفيها ما نابها من نسـوة البيـت بسببه. دون أن يحدثها بكلمة.

كان الحكش نائما فى حجرته. صاحت حربية لأخته :

- أوحشتينى. قلت أزورك.
- لا. الحكش هو الذى أوحشك.

ضحكت خجلى. قالت :

- الحقيقة. أنكما أوحشتمانى معا.

جاء الحكش إليها وهو مازال يرتدى ملابس العمـل. كان يتثاءب، قال فى كسل :

- أهلا حربية.

أخته مازالت تقف تتابعهما :

- لماذا لا تأتى إلى الشونة ؟

نظر إلى أخته. فهمت قصده. رغم هذا لم تترك الحجرة :

- مشغول يا حربية.
- حب جديد.
- لا. فرقة الفنانين.

ضحكت، أخته سارت. أسرعت حربية إليه، أمسكت يده :

- حكش، أنت تلعب بى. لم تعد تحبنى كما كنت.
- أجننت. اذهبى إلى مكانك. ستدخل أختى أو أمى الآن.

عادت لمكانها، بكت :

- حكش، لابد أن تخطبنى. انت تعرف أننى ليس لى سواك.
- سأغتسل، لدى مهام عاجلة.

وقفت :

- سأذهب الآن. وسأنتظرك فى الشونة غدا.

- سآتى. لكن اذهبى الآن.

* * *

أغلق الحكش باب حجرته التى ينام فيها. تتابعه أم يوسف. لم يهتم بها فهو لاه الآن. لابد أن يتخذ موقفا من سيد وبخيت وتوتو. وكل من خذله فى امتحان الإذاعة. غنوا فى فرح الرمل دون أن يتلقوا نقطة. كان الحفل كاحتفال مدرسى. لا حشيش ولا بيرة ولا سكارى. المدعوون يجلسون كأنهم فى عزاء. يصفقون فى اتزان. لم يصح أحدهم. أو يصرخ. أو يصر أن يعيد ما غناه مثلما يفعلون معه فى غربال.

أهل غربال يعرفونه ويعرفون أباه جيدا. كلهم لديهم مناسبات زفاف، ختان، خطوبة. الخ. إذ ما أراد إحياء حفل. يطلبون منه ان يتكلم مع زملائه فى هذا. فلماذا يكلمهم. لماذا لا تكون الفرقة له وحده. لابد من آخرين يساعدونه. من يختار لهذا ؟

سيد لا يهتم بالنقطة. يريد أن يغنى "لمزاجه"، كما أنه رئيس الفرقة الحالية. ولو عمل معه لن يسمح له بأن يكون رئيسا عليه. وتوتو يريد أن يكون عبد الوهاب المستقبل. فى كل حفل يعزف النهر الخالد. هو وسيد يحلمان بان يكتشفهما مخرج سينما. ويصبحان كعبد الحليم حافظ. أما بخيت فتكفيه الإذاعة.

لم يتبق له الآن سوى صبحى. إنه راقص أكثر منه مطربا. ولا يطمح لأن يكون رئيس فرقة. وعبده فاكهة -

عازف الأكورديون - على قدر يديه. ولن يمانع. وإذا ما احتاج لعازفين ومطربين - آخرين - سيطلب من "أبو دومة".

لن يعمل معه من الآلاتية سوى عبده فاكهة وطبال. ما عدا ذلك بهرجة ليس لها داع. صوت العود والكمان يضيعان وسط الطبلة والأكورديون. لم يتبق له سوى البنت العالمة التى يجب أن تكون مرافقة للفرقة طوال السهرة. إنهن كثيرات. يستطيع أبو دومة أن يمده بما يريد. لكن البنت حليمة العالمة تصلح لهذا تماما. أجل. لكنها تحب سيد. تجلس دائما بجانبه. وتمازحه طوال السهرة. كما أن سيد يبغى الزواج منها. سأحاول معها ولن أخسر شيئا.

دقت أم يوسف بابه حذرة. فتح الباب. وجدها أمامه. حضور حربية إليه أشعل النار فى جسدها وقلبها. غامرت ودقت باب الحجرة رغم ما نابها فى المرة السابقة. قالت :

- أريد قطعة سلك. لأصلح المصباح الكهربائى.

كانت أمه وأخته قد خرجتا. وأبوه معلق فوق مقعده يتابع المارة من النافذة. كعادته. لاه عن كل شئ. شدها إليه وأغلق الباب.

- تعالى. إنى أنتظرك منذ زمن.

- وحربية ؟

- لا. "زمن حربية ولى.

* * *

تجلس جميلة فوق السرير. ترتدى بيجامتها. توتـو نائم. منذ أن تزوجته وهو كثير النوم. يحملق فـى السـقف بالساعات. واضعا ذراعيه تحت رأسه.

داعبته بأصابعها، كان ملولا. ليس هذا وجه جميلـة الذى أحبـه. والذى كان يسعد كلما نظر إليه. كلا. ليـس هو الوجه الذى كان يتابعه فى جلساتهما فى الشلالات.

- ماذا بك يا توتو. كل يوم وأنت على هذه الحال.

أدار جسده للناحية الأخرى. سيذهب إلى الإذاعة بعد يومين. لابـد أن يحضر بروفة الفرقة الموسيقية. بأى شىء سيذهب. آلـة الكمان فى البيت. ولن يستطيع أن يسـتأجر آلة الكمان من أبو دومة. لابد أن يحصل على كمانـه. أو يشترى واحدة جديدة.

إنه لم يدفع مليما لتركية منذ أن تزوج. الطعام يأتيه كل وجبة. إلى متى ستتحمله ؟

جميلة لم تعد لعملها منذ أن تزوجت.

- توتو. لن تدوم حياتنا هكذا.

هب أمامها :

- ماذا تريدين ؟

- أريدك أن تعود إلى ما كنت عليه قبل أن نتزوج.

وقف على الأرض :

- سأرتدى ملابس الخروج.

- أخرج معك ؟

- لا.

ذهب إلى المرحاض. قالت من مكانها :

- احلق لحيتك قبل أن تخرج.

دفع الباب فى عنف.

* * *

سار توتو ناحية مكتبة البلدية. لم تعد حياته فى غربال تجربة مثيرة تغريه بأن يكملها، من الممكن أن يظل فى ذلك البيت الكئيب إلى أن يموت. وأن تحمل جميلة منه وتلد. وأن تلد ثانية وثالثة. ولا يستطيع إلا أن يصير عبدا لها ولأمها. كما انتهت حياة ياسين.

لا. حتى لو سجن بالمبلغ المستحق عليه، والذى أصرت أن تضيفه تركية على عقد الزواج، المهم أن يهجر غربال نهائيا. يستطيع أن يقابل بخيت فى الإذاعة، وسيد وياسين سيقابلهما فى قهوة أبو دومة. ماعدا هؤلاء لا يريد أن يرى أحدا.

مازال معه مبلغ صغير من أجرة حفل الرمل، آخر حفل أحيوه. الحفل لم يكن به نقطة. لكن أصحابه دفعوا مبلغا كبيرا. لم يتلقوا مثله من قبل.

مر بالشلالات. المقاعد التى كان يجالس فيها جميلة خالية الآن. رجل أسود حافى القدمين. يثنى بنطلونه لأعلى. يتحرك فى خفة. يضع أكواب الشاى الأسود فوق صينية ألمونيوم. ويصيح بصوت حاد رفيع.

جلس بجانبه. ابتسم الرجل قائلا :

- سأحضر إليك.

ذهب بالشاى إلى مجموعة بستانيين قد فرغوا من تناول طعامهم.

ما الذى يجلسه هنا. إنه لا يريد شايا. مكتبة البلدية على بعد أمتار من هنا لكنه يحس بالتعب. لم ينم جيدا. يسهر لوقت متأخر من الليل. وجميلة بجانبه تتقلب. يسمع صوت المؤذن يؤذن للفجر. رغم ما فعلته تركية معه من عنف، وأجبرته على أن يتزوج ابنتها لم يكن ذلك يحزنه. فهو لم يكن يخاف أن يتزوج ابنتها. كل ما كان يخشاه أن يفتضح أمره أمام أبيه وأمام بسيمة. لكن بعد عدة أيام – من الزواج – أحس بخطورة ما حدث.

تعامله جميلة معاملة حسنة. وتتحمله. لكنه يخافها. ويخاف عليها منه. فهو لن يقدر أن يكون زوجا إلى الأبد.

يتابع أحيانا وجهها وهى نائمة. فيحس بمدى جمالها. وجهها الأبيض المستدير. وابتسامتها الرقيقة وهى نائمة.

جاء الرجل الأسود إليه، قال :

– طلباتك.

لا يبيع سوى الشاى الأسود. لم يجبه توتو. أكمل الرجل :

– واحد ؟

أومأ توتو. تابع البستانيون. ملابسهم لا تختلف كثيرا عن ملابس بائع الشاى.

من الممكن أن يكون هو أيضا بستانيا مثلهم. ويبيع الشاى بجانب عمله.

أحس بعضهم أنه ينظر إليهم. فتحدثوا معـــا وهـــم ينظرون إليه.

حمل الرجل الأسود الشـــاى إليـــه. مـــد الصينيـــة. أمسك- هو - بالشاى. وعاد الرجل بالصينية.

فتيات الأسرة كثيرات. بعضهن أكثر جمـــالا مـــن جميلة. أقارب أمه التى ماتت. واللاتى يقابلهن لدى جدته - أم أمه - كن يتحدثن معه سعيدات : باشمـــهندس، وكـــاتب، وموسيقى.

أقـــارب بسيمة اللاتـــى يـــأتين لزيارتـــها. مـــا أن تنصرف عنهـــن - لأمر من أمور البيت - حتـــى يســـرعن إليه. يتوددن إليه، يطلبن سماع كمانه. كانت بسيمة تبتســـم ساخرة وتدعوهن إليها.

رغم هذا كله لم يفكر فى واحدة منهن. بعض الفتيات الصغيرات كـــن يهتممن به. وينفر منهن. ويتظاهر بعـــدم فهم مقصدهن. لم يكن يعلم أنه يختزن كل ذلـــك الصمـــت. لجميلة ابنة تركية.

تابع الدوائر البيضاء فوق حافة كوب الشاى الأسود. ابتسم. تعود شرب الشاى الأسود من مرافقته لبخيـــت فـــى الكوخ. كلما صنع له شايا خفيفا. صاح مبتسما :

- يا باشمهندس. أنا أشربه أسود ومر.

" هو يؤمن الآن بالنصيب. كمـــا يقولـــون. تصـــرخ بسيمة فيه فيثور. ويضربها ويترك البيت. ويأتى إلى غربال ليقابل تركية وابنتيها.

اقترب من مبنى مكتبة البلدية. أحس بالخوف. لكنه لم يبتعد.

الخوف، وعقاب أبيه. أو أى شئ آخر أمـــر منـــهما أهون بكثيـــر من المستقبل المظلم الذى سيهوى إليه لو ظل- هكذا – فى بيت تركية.

وقف أمام الباب الحديدى. الباب كان مفتوحا. لـــم يستطع أن يدخل.

جندى مسن يجلس على مقعد أخضر اللون. كبـــير بجانب الباب. عندما وجده يقف مترددا. قام إليه :

– تريد أحدا ؟

أحس بالارتباك. ماذا يقول له :

– أريد مكتبة البلدية.

أشار الجندى إلى باب المكتبة الطويل، سار إليها، رآه أحد الموظفين. صاح مندهشا :

– تيمور. تيمور.

لقد جاء كثيرا إلى هنا ليستعير كتبـــا. يعـــرف كـــل العاملين. كانوا يحجزون الكتب التـــى يريدهـــا فـــى أدراج مكاتبهم. ويخرجونها له عندما يرونه.

إنه لا يعرف اسم الموظف. فهو لم يأت إلى هنا منذ وقت طويل. أو لعل الحالة التي يمر بها الآن، جعلته مشتتـــا وبعيدا عن التركيز. أسرع الموظف إليه، صافحه. ضمـــه لصدره :

– أين كنت يا تيمور أفندى ؟

لم يجبه. جاء موظف آخر :

- تيمور ابن توفيق بك. المدير.

التفوا حوله. لدرجة أدهشت رواد المكتبة :

- أبوك يبحث عنك فى كل مكان.

اقترب منه عم عبده. يعرفه توتو جيدا. كان يختار له الكتب بنفسه. يطلب توتو أحيانا كتابا معينا. فيمتنع عن إحضاره له. يختار كتابا آخر.

- أهلا عم عبده.

- ماذا فعلت بأبيك يا توتو.

- ماذا حدث له ؟

- يكاد يجن منذ تركت البيت.

لا يدرى توتو ما الذى أتى بأبيه. فكل من رآوه حوله. لم يتركوه.

أسرع الرجل إليه. أحس توتو بارتعاشة. لم تكن خوفا. ربما كانت لهفته لأن يضمه أبوه إليه.

انفض البعض من حوله. أبوه أسرع إليه. ضمه لصدره. بكى. لم ير الدموع خلف النظارة السوداء، لكن صوته كان يبكى.

- ولدى، ولدى.

لم يسأله أين كان وماذا فعل ؟

دخلوا جميعا مكتبه. عددهم كان أكثر من المقاعد. فظل أكثرهم واقفا. ردد الرجل بسعادة :

- الحمد لله. الحمد لله.

أدار قــرص التليفــون. أحــس توتــو بــالخوف. سيتصل حتما ببسيمة. لعل والده يؤجل معاتبته وحسابه لوقت آخر.

كان سعيدا وهو يمسك التليفون. بعــض الموظفيــن الواقفين خرج من الحجرة. وأتى عدد آخر. أكــثرهم مــن النساء. تحدثوا مع توتو. لكن لم يسأله أحد أين كان.

قالت واحدة :

- منذ أن غبت عن البيت - والمكتبة كلها قلقة مــن أجلــك. كنا فى حالة طوارئ.

أبوه يمسح صلعته بيده :

- أجل. أنا توفيق يا بسيمة. أبشرى يا ستى. توتو رجــع. هو لدى الآن. صدقينى.

ابتسم له قائلا :

- تعال يا سيدى حدثها. إنها لا تصدقنى.

كان فى حالة بين الحلم والحقيقة. كأنه مازال ينــام على سريره فى شقة تركية.

أمسك سماعة التليفون. جاء صوتها :

- ألو.

- ألو.

صاحت فزعة :

- توتو. اخص عليك.

وبكت.

لم تكن بسيمة أبدا. ذلك صوت آخر غير صوتها :

- أجل يا طنط. أنا توتو. بخير.

لم يعرف كيف يحدثها. كانت تبكى طوال الوقت.
ترك السماعة لأبيه.
صاح بها :
- اهدئى يا بسيمة. لقد عاد والحمد لله. سأعود حالا به. لن أبقى للساعة الثانية. سأعود حالا.
جاءه أحد الموظفين بزجاجة قازوزة. وضعها أمامه مبتسما. قال أبوه :
- اشرب زجاجتك. لنعد إلى البيت.
شرب نصف الزجاجة وهو يقف مستعدا للذهاب.
خرجا معا. جلس بجواره فى السيارة. وقف الجندى محييا وهو يتابعه فى دهشة، كان أبوه مبتسما. منذ عهد طويل لم يره مبتسما هكذا.
- بسيمة مريضة من أجلك.
- أنا ؟
- أجل. بحثت عنك فى كل مكان. وكل يوم تحس بأنها كانت سبب غضبك وخروجك من البيت.
لم يجبه. وهو لم يقل شيئا آخر.
وقف فى الطريق، اشترى أشياء كثيرة : لحما وفاكهة وحلوى. ملأ المقعد الخلفى باللفافات.

* * *

خرجت بسيمة من باب الشقة. لعلها كانت تتابع السيارة.
شدتنى إليها، جسدى الضامر انزوى وسط جسدها الممتلئ. بكت ثانية :

- اخص عليك. أنت ابني. لم أرزق بأطفال. وأنت ابني الوحيد.

أراد أن يبكى مثلها. تذكر أنه لم يبك عندما بكى أبوه فى المكتبة.

جلست. أبوه يحمل الأشياء من السيارة. عودته إلى البيت جعلت المناسبة غير عادية. أبوه فى الأعياد لا يشترى كل هذه الأشياء.

قالت بسيمة فى غياب أبيه :

- أين كنت ؟

نظر حوله فى خوف. أبوه مازال فى الخارج يحضر اللفافات :

- لدى صديق لى.

أشارت إلى بذلته المهترئة :

- أهذه ملابسه ؟

- أجل.

- قم واخلع الملابس، واستحم.

لم يقم، كان كالغريب فى البيت.

دخل أبوه، رآه جالسا بجوارها، ابتسم، قالت :

- وزنك تناقص كثيرا.

أومأ برأسه. قالت :

- لكن والدك سأل كل أصدقائك (تقصد زملاء الكلية).

- كنت لدى صديق لا تعرفانه.

أبوه يتحاشى الخوض فى ذلك الحديث. لا يريد أن يثقل عليه.

سارت بسيمة. قال أبوه :

- لاشك أنك تشتاق لكمانك.

- أجل.

- كلما رأت بسيمة الكمان بكت. فـــاضطررت أن أخفيــها عنها.

"أتحبه بسيمة إلى هذا الحد ؟!" أحس بحب شديد لها. لم يحسه من قبل.

(١١)

ذلك أول حفل يحيِيه الحكش وحده، دون فرقة سيد.

وقف صبحى بقامته الطويلة :

– فرقة الفنان "عبد الحميد عبد الله الشهير بالحكش تحييكم".

أحس الحكش برعشة وهو جالس. بجانبه عبده فاكهة بأكورديونه والطبال وحليمة العالمة. ذهب إليها بالأمس. لم يجدها + قال لأمها، الذى كان يعلم – مثل سائر أهل الحارة – إنها عالمة قديمة.

– أنا الحكش ابن عبد الله شحاتة.

قالت المرأة فى ضيق :

– أعرفك. أبوك كان يمتلك كل هذه البيوت.

– لقد أسست فرقة.

قالت المرأة فى دهشة :

– أية فرقة ؟

– فرقة عوالم.

– أنت أيضا ؟

– أجل. وأريد حليمة أن تعمل معى.

أحسست المرأة بالضيق. تذكر جيدا موقف أخوه محمود منها ومن باقى العوالم.

أتى ذات ليلة مع عدد كبير من أهالى الحى. وهددوهم إن لم يتركوا الحى كله. سيضطروا لطردهم منه.

وبالفعل ترك عدد كبير منهم الحى.

الآن أخوه يؤسس فرقة للعوالم.

قالت :

- هى غير موجودة الآن ؟

- أستطيع أن أنتظرها ؟

رفعت كتفها ولم ترد. جلس. وانشغلت هى بقميص قديم ترتقه. أخرج علبة سجائره ودخن. لم تحدثه المرأة ثانية. لكنها كانت كارهة له. الحكش الزبال يكون فرقة للعوالم ؟!

جاءت حليمة، قالت مندهشة :

- حكش ؟

وقف لها :

- أهلا ست الكل.

كانت تتابع نظراته وهما فى الحفلات التى يحييانها معا.

دخلت حجرتها لتغير ملابسها. وتبعتها أمها. قالت :

- ماذا يريد هذا ؟

قالت الأم فى ضيق :

- يريدك أن تعملى معه.

- فى الزبالة ؟

- لا، فى فرقة العوالم.

ضحكت حليمة.

خرجت إليه :

- نورت البيت.

- أريدك أن تعملى فى فرقتى.

- ستعمل بعيدا عن سيد ؟

- أجل. هل ترفضين ؟

- لماذا أرفض. سيد مثل غيره من أصحاب الفرق.

عنفتها أمها بعد أن خرج :

- كيف تتركين سيد وهو يريدك؟!.

- لم يعد سيد يهمنى فى شئ.

- يا خايبة. الولد يمتلك محلا كبيرا للملابس.

* * *

عزف عبده فاكهة مقطوعة موسيقية. وغنت حليمة. انهالت النقطة على رؤوسهم، يغنى صبحى السورى مقطعا صغيرا من أغنية، هدية لكل من ينقط، وعندما يتعب يحل الحكش محله. ثم غنى شاب آخر أرسله أبو دومة إليهم. ورقصت حليمة بملابسها العادية. وهلل الحاضرون ابتهاجا عندما رفعت طرف ثوبها.

بعد انتهاء الحفل وزع الحكش النقطة والأجرة عليهم. أعطاهم أكثر مما يستحقون لكى يأتوا معه ثانية. لابد أن يغريهم. ولو يستطيع أن يدفع من جيبه لهم.

عاد صبحى والحكش معا. قال صبحى :

- لو علمت باقى الفرقة، فسيغضبون.

- يحترقون. ليس لهم شأن بنا.
- لهذا، يجب أن نترك أبو دومة. ونتعامل مع وكيل فنـــانين آخر.
- أجل، سأتعامل مع وكيل آخر. وإذا أردنا حليمة. سأطلبها من بيتها.

* * *

اقترب سيد من باب البيت، وضع يـــده فـــى جيـــب بنطلونه، تركية تقف أمام البيت، كثيرا ما يرى ســيد تركيـــة جالسة على حاشيتها أمام الباب، لكن وقوفها هكذا - يدعـــو للريبة، وزكية - ابنتها - تقف بجانبها.

عندما اقترب منهما، سمع تركية تردد :

- ها هو سيد.
- ماذا حدث ؟

دخلنا الباب. قالت تركية هامسة :

- تعال إلى شقتنا.

كانت جميلة تبكى. قالت تركية :

- أين ذهب توتو ؟
- لم أره منذ أمس.

قالت جميلة باكية :

- لقد خرج أمس عند الظهر تقريبا. ولم يعد للآن.
- كيف حدث هذا، أخشى أن يكون قد حدث له مكروه.

بكت جميلة ثانية :

- أجل + لقد كان غاضبا.

قالت زكية لسيد بصوت خافت، على الرغم من أنه لا يوجد فى الحجرة سواهم :

- لا أريد أن يعرف أحد بما حدث. أعداؤنا كثيرون.

- المهم أن نجده.

قالت تركية :

- من الممكن أن يكون قد عاد لأبيه. تعرف بيت أبيه ؟

- لا.

صاحت تركية فجأة :

- كيف لا تعرفه. ألم يكن صديقك. وأنت الذى أتيت به إلينا.

قالت زكية لأمها :

- اهدئى يا أمى. حتى لا يحس بنا أحد. مهما غاب سنصل **إليه.**

قالت جميلة فى أسى :

- لقد خدعنا.

قال سيد :

- سأذهب إلى قهوة أبو دومة لعله يسهر هناك.

خرج سيد، وخرجت تركية وابنتها زكية لتقفا كما **كانت.**

* * *

تحسس توتو آلة الكمان، قبلها فى حنان. ابتسمت بسيمة له، جلست بجوار أبيه. عزف توتو. كان منظر أبوه وبسيمة فى نظرتهما له وهو يعزف، كما كانت تفعل أمه وأبيه عندما يجلسان يتابعانه وهو يعزف.

قالت بسيمة فى اليوم التالى :

- لدى إحساس بأنك مريض. شحوبك هذا غير عادى + بعد أن يعود والدك من العمل. سأجعله يعرضك على الطبيب.

- لا. لست مريضا. لكن فراقكم جعلنى مهموما.

ربتت على صدره وضحكت.

عـاود العزف ثانية. فى الغد موعـد أول بروفـة فرقة الإذاعة. للآن لم يقل لأبيه، ولا لبسيمة عن هذا.

عزف لحنا حزينا. كان يعزفه كلما أحس بـالغضب من بسيمة أو من أبيه.

جلس حزينا والكمان بجواره. والقوس مازال بيـن أصابعه. كبرت يا توتو وأصبحت تحمل أسرارا كبارا. كان كالذى يهرب من تهمة كبيرة ستؤدى به إلى عقوبة شديدة.

سيـد لا يعرف بيته. لكنه يعلـم أن والـده مديـرا لمكتبة البلدية. وقد يخبر تركية بهذا فتذهب إليه مع ابنتيـها وياسين وغيرهم ليفضحوا والده أمام موظفيه.

إنه يرقد فوق بركان سينفجر بلاشك. وسيحطم كـل شئ فوق رأسه.

حمل كمانه وذهب للإذاعة. سأل عن بخيت. كـان يتكئ على أحد الموائد فى الأستوديو. أسرع توتو إليه :

- بخيت ؟

ضمه لصدره :

- باشمهندس. كيف حالك ؟

- أحس بوحشة إليك.

- لكننى غاضب منك.

– لأنى تركت تركية وابنتها ؟
– لا، لأنك لم تقل لى إنك ذاهب. كنت أخشى أن يكون قد أصابك مكروه.
– صدقنى. ذهبت إلى أبى دون أن أدرى.
– الحمد لله أنك عدت لأبيك.
– أريدك أن تخبر سيد بذلك. لكن لا تخبر أحدا عن مكانى.
ضحك بخيت وقال :
– أجل، لن أخبرها.

صافحت الفرقة توتو. أخذ مكانه بين عازفى الكمان. جاء الخضرى بك + وبدأت البروفة. كان بخيت يغنى أغنية لحنها ملحن مشهور فى الإسكندرية. كان له تاريخ طويل فى القاهرة. لدرجة أنه أشرك فى بطولة ثلاثة أفلام. ثم اختار الإسكندرية كمرسى له. وعاش فيها بعيدا عن أضواء القاهرة وضجيجها.

* * *

بعد أن عاد توتو إلى البيت – وكان يرتدى بذلة من بذله. نظر أبوه إليه وقد أحس أن فى الأمر شيئا. كما أن البروفة استغرقت وقتا طويلا. حتى خشيت بسيمة أن يكون قد ذهب ثانية إلى صديقه الذى كان يعيش لديه.

حياهم. ثم دخل حجرته. كان أبوه غاضبا. ويريد أن يسأله عن المكان الذى كان فيه بكمانه. أحس أن ابنه يعمل بالكمان فى مكان ما. لكن بسيمة قالت له :
– لا تغضبه ثانية خشية أن يهرب + إننى لا أستطيع احتمال جدته العجوز ثانية.

كانت العجوز – جدته لأمه التى ماتت – قد ثـــارت عندما علمت أنه ترك البيت. وهددت بأن تطـــالب بمـــيراث ابنتها، الذى ينعم به توفيق وبسيمة.

لكن هذه الطريقة ستضيع الولد.

عاد توتو ثانية لأبيه :

– أبى. إننى أعمل.

– عازفا للكمان. أليس كذلك ؟

– أجل.

– فى أى حانة ؟

– فى فرقة موسيقى الإذاعة.

أحس أبوه أن الخطر ليس كبيرا :

– لكن أنت مازلت تدرس.

– كان لابد أن اجد عملا لأعيش.

– لكنك عدت الآن. ولم تعد فى حاجة لهذا العمل.

– الالتحاق بفرقة موسيقى الإذاعة ليس ســـهلا. وحـــرام أن أضيع هذه الفرصة من يدى.

أمسكت بسيمة يدى زوجها.قائلة فى استعطاف :

– دعك من هذا الموضوع الآن.

قال توتو مكملا :

– كما أن العمل فى فرقة موسيقى الإذاعة لن يؤثـــر علـــى مذاكرتى.

لم يتحدث الرجل ثانية. لكنه لم يكن سعيدا.

* * *

أحس أبو دومة أن الحكش يتعامل مع وكيل فنانين آخر سواه. خرج من القهوة، وجد سيد مع بعض أفراد الفرقة. قال :

- ألم تعلم أن الحكش يعمل وحده الآن ؟

صاح سيد فى دهشة :

- ماذا تقول ؟

- لقد أحيا أكثر من حفل باسمه. أول حفل أرسلت إليه طبالا ومغنيا. واستأجر منى أكورديون. وعملت حليمة معه.

- ابن الإيه. لقد علمناه كل شئ. ويبيعنا. لابد من اتخاذ موقف ضده.

* * *

ذهب سيد إلى حليمة العالمة. استقبلته أمها بحفاوة كبيرة - كعادتها - "خطوة عزيزة يا سى سيد".

كلما أفرطت فى إكرامها له. أحس أنها تخفى أفعالا لابنتها. لا يرضى هو عنها.

كانت حليمة نائمة فوق الفراش، عندما سمعت أمها ترحب به هكذا. قامت ملولة :

- أهلا سيد.

جلس، أمها داعبته :

- مازلت تعمل مع العوالم ؟

- لا أدرى، ابنتك هى التى ستحدد هذا الآن.

قالت حليمة غاضبة :

- وما شأنى أنا ؟

- هل ذهبت للعمل مع الحكش ؟

- أجل.

صاح فزعا :

- وتقولين هذا بسهولة ؟!

- أجل. وما الذى يغضبك ؟

- أنت تعلمين أنه كان عضوا بفرقتى. الفرقة التى أسستها...

- ليس لى شأن بهذا. أنا عالمة. أعمل مع من يطلبنى.

- لكنه غدر بى يا حليمة.

- ليس لى شأن بهذا.

حاولت الأم أن تخفف من حدة ابنتها :

- إنها لا تقصد يا سيد.

صاحت فى أمها :

- أنا أقصد ما قلت. هو لم يشترنى حتى يتحكم فى.

- لكن أنت خطيبتى. وهذا من حقى.

ضحكت ساخرة :

- لست بخطيبتك.

قام فزعا وسار للخارج. سارت الأم خلفه :

- سيد. سيد.

أمسكته من يده :

- لا تغضب، إنها غير طبيعية اليوم. العمل قليل يا سيد. ومن حقها أن تعمل مع من يطلبها، مصاريفنا كثيرة والحال كما ترى.

سارت معه عدة خطوات وقالت :

- يا ابنى دعك من العوالم. لديك دكان يأكلك "الشهد". عد إليه واعمل به.

شد يده من يدها وسار إلى الشارع.

* * *

ذهب سيد إلى بيت الحكش. نادى عليه. كان كالمخدر بالحديث الذى دار بينه وبين حليمة.

خرج الحكش إليه :

- تفضل يا سيد.

- كلمتان على الماشى.

أحس الحكش بما يريد أن يقوله، قال :

- تفضل، قل الكلمتين.

- لماذا عملت وحدك؟. مع أنك أتيت إلينا ولم تكن تعرف **شيئا عن المهنة.**

صاح الحكش به :

- لو كنت أعلم أنك آت لتتحدث فى هذا ما كنت خرجت إليك.

كانت أم يوسف تتابعهما من خلف نافذتها الموارية. فهى تهتم بكل الأشياء التى يهتم لها الحكش. رأته يدفع سيد، وسيد يمسكه من رقبته. هبت فزعة. نادت أم **الحكش :**

- الحكش يتشاجر مع سيد ابن فايقة.

أسرعت الأسرة كلها. وجدوهما يتشاجران معا. كاملة - أخت الحكش - ضربت سيد بخشبة فوق رأسه، شجتها. أسالت الدم منها.

تدخل أهالى الحارة وفضوا المشاجرة. وأسرع أحدهم إلى دكان حلاق قريب. وأتى لسيد بقطعة قطن مغموسة بصبغة اليود. ليوقف نزيف الجرح.

* * *

تقابل الحكش وصبحى السورى وعبده فاكهة أمام دكان سويلم الحلاق. قال الحكش :

- لابد أن أفعل شيئا لهذا الولد.

تذكر صبحى حكاية الأتوبيس، قال :

- لو شكوته لشركة الأتوبيس التى يعمل بها. بأنه يأخذ الأتوبيس ويستخدمه لأغراضه الخاصة.

- أجل. لابد أن أوقفه عن العمل.

ردد عبده فاكهة قائلا :

- ليس هناك داع لهذا. سيد غضب لأننا عملنا بدونه. رغم إنه هو الذى أسس الفرقة. وغضبه سيزول بمرور الأيام. أنا أعرف سيد جيدا.

لم يجبه الحكش.

مرت حربية من أمامهم. منذ زمن بعيد وهى تمر أمام دكان سويلم الحلاق، إذا ما أرادت الحكش.

ها هو يعود ثانية لجلسته القديمة. عبده فاكهة وصبحى السورى لا يعرفانها. سويلم الحلاق الذى يعرفها - مشغول بالحلاقة لزبون داخل الدكان.

استأذن الحكش منهما. وسار ناحية الشارع الذى ولجت فيه. أسرع الخطى، وجدها تقف فى الظلام. قال فى ضيق :

- ماذا تريدين ؟
- أريدك.
- لقد تركت الرجلين من أجلك.
- لم تعد تأتى إلى الشونة كما كنت، مشغول بفرقتك الجديدة ؟
- ها أنت قلت، لماذا تطاردينني إذن ؟
- أخشى ان تأخذك عالمة من اللاتى يعملن معك.
- لا تخافى إننى مشغول بالفرقة وحدها. أود أن أكبرها، كل هذا من أجلك يا حربية.
- أعطنى ولو نصف ساعة.
- أين ؟
- فى الشونة كما كنا نفعل من قبل.
- لا أستطيع.

ثم قال فى ضجر :

- الرجلان ينتظراننى. سأرسل إليك فى الشونة إذا أردتك.

وعاد. وهى مازالت واقفة.

(١٢)

جاءت الحاجة – جدة توتو – تستند على عصاهـــا.
ولا يظهر من جسدها سوى وجهها الأحمر المتغضن، وكفيها:
- أين ذلك الولد ؟

أتى إليها، كانت تستند على المقعـــد المجـــاور لـــها، أسرع إليها، قبلها. قبلته. ثم رفعت عصاها لأعلى :
- أنت لا تستحق سوى هذه.

كان توفيق ينظر إليهما فى ابتسامة خجلى. لوحـــت الحاجة بعصاها ناحيته :
- إذا ما أغضبك أبوك. تعالى لى. لماذا لم تأت إلى ؟

ازدادت ابتسامة توفيـــق اتســـاعا. بســـيمة أحســـت بارتباك. كادت الأشياء التى بين يديها تقع. لقد قال زوجـــها للحاجة. إنه – هو – الذى أغضبه. وبسببه ترك البيت.

بكت بسيمة وقتذاك :
- لا أستطيع أن أواجه العجوز. ماذا ستقول عنى؟.

بسيمة تتصل بصلة قرابة للحاجة. التى كانت تعطف عليها وعلـــى أسرتها. عندما ماتت ابنتها رشحتها للـــزواج من توفيق. اختارتها بنفسها حتى تطمئن أن يعيش ابن ابنتها

مع امرأة تحسن معاملته. فإذا ما غضب الولد. وترك البيت. ماذا ستقول العجوز عنها ؟

ابتسمت بسيمة لها وقالت :

- توتو لن يترك البيت ثانية.

جلست الحاجة مستندة على عصاها. قبل أن تعود إلى بيتها أصرت أن تأخذ توتو معها. ليقضى يومين فى شقتها.

* * *

تعيش الحاجة فى شقة واسعة فى "ستانلى". شقتها تلك كانت واحدة من شقق كثيرة يمتلكها زوجها التركى الأصل. بعد أن مات أجرتها. ولم يتبق لها سوى تلك الشقة.
لم تلد العجوز سوى درية أم توتو. ودولت.

تردد - هى - دائما - أن حظها فى الدنيا قليل. زوجها مات صغيرا. وتركها أرملة فى عز عمرها. وماتت درية قبل أوانها. ثم مات زوج دولت كمدا بعد أن خسر ما ورثته زوجته من أبيها فى التجارة. ثم انتقلت بابنتها كريمة إلى شقة أمها فى ستانلى.

أموال العجوز كثيرة. زوجها كان يمتلك محلجا للقطن. وأراضى كثيرة متناثرة. كشققه. وبيوته الكثيرة.

عرفت درية أن تختار الزوج الحسن. لكن دولت أحبت زوجها الموظف الصغير هربت معه وأقاما بعيدا عن رضى الأم والأب.

تردد العجوز الآن، إذا ما غضبت من دولت :

- أن أباك مات كمدا من فعلتك.

بعدها، أصر الزوج أن يحصل على كل ما ورثته زوجته من أبيها. واستقال من وظيفته. وعمل فى التجارة. ولأنه ليست لديه خبرة فى هذا. أضاع كل شئ. وعادت دولت إليها ومعها ابنتها كريمة دون أن يكون لهم حتى معاش من عمله السابق يعيشان منه.

دار توتو وسط الصالة الكبيرة، التى تعد – وجدها – كنصف شقتهم – تخلع العجوز وشاحها الأبيض، تظهر التجاعيد فى رقبتها.

تأتى خالته دولت. تصافحه. تسرع كريمة إليه. لا يسمع بعد ذلك ما تقوله دولت فكريمة تدور حوله، تتحدث كثيرا لولا خوفها من أمها وحيائها من جدتها لقبلته تبتعد الأم فى أسى + لا تحب لابنتها أن تهتم بإنسان سواها + ذلك الاهتمام الكبير الذى تبديه لتوتو يشعرها بالخوف. العجوز تبتسم لدولت متحدية، تقول ابتسامتها لها "ألم أقل أن توتو لكريمة، وكريمة لتوتو".

أحبت دولت صلاح – والد كريمة – كلما سمعت كريمة تتحدث عن توتو بهذه اللهفة تتذكر نفسها وهى صغيرة. تسهر تنتظره حتى يعود إلى حجرته التى يسكنها مع آخرين، ثم تنام تحلم به.

ضربها أبوها فى عنف. كيف تتزوجينه وهو مازال فى الثانوية ؟

رغم هذا هربت معه، أهلها لن ينتظروه حتى يكمل تعليمه. سيتزوجها صغيرة، كما تزوجت أختها درية. سيأتيها رجلا كاملا من كل شيء.

لقد عانت دولت. ولا تريد لابنتها أن تعانى مثلـــها. يكفى أنها ترملت صغيرة ولم تتزوج ثانية. رغم أن بعــض بنات العائلة - الأكبر سنا - لم يكن قد تزوج فى ذلك الوقت.

كانت العجوز صارمة :

- أعلم يا دولت أنك تريدين الزواج ثانية. ولن أسمح لـــك. يكفى ما سببته لنا من عار، ماذا يقول الناس عنك. تـــتزوج بعد موت زوجها.

امتلأ جسدها الآن - انتفخ وجهها ورقبتها. لم تعــد تعجب أحدا. لابد أن تحمى ابنتها. توتو يعيش حياته كمـــا يهوى. زملاؤه - الذين كانوا معه فـــى الثانويـــة - أنــهوا دراستهم، ويعملون الآن. وهو كما هو فى كلية الهندسة.

ذلك النـــوع من الرجال لا يصلح للـــزواج. ولـــو تزوج فلن يعمر طويلا. سيموت كمدا كمـــا مـــات صـــلاح زوجها. الذى كان يعانى من عدم مقدرته علـــى الاحتفـــاظ بمالها. ومن عجــزه عن أن يجعلها تعيش فى مستوى يناسب المستوى الذى كانت تعيش فيه فى بيت أبيها.

* * *

نامت العجوز فوق عصاهـــا الملتصقـــة بـــالأرض. وملت دولت الجلوس فسارت إلى المطبخ تعد بعض الحلوى ابتهاجا لحضور توتو إليهن. قالت كريمة :

- ليتنى أعرف المكان الذى ذهبت إليه.

كريمة رقيقة، وجهها لونه أحمر. نحيف بعكس أمها. كانت معه قبل ان يرى جميلة. لم يحس بها أبـــدا. عندمـــا رأى جميلة نسى كل بنات العائلة. لم يذكرهن أبدا :

- سأحكى لك عن هذا فى الوقت المناسب.
- كنت أخشى ألا ألقاك. كنت أود أن يبدأ العـــام الدراســـى بفارغ الصبر، حتى أجدك فى الكلية.

أحس توتو أن كريمة قد صارت أصغر بكثـــير ممـــا كانت عليه.

ساعدت دولت أمها العجوز للوصول إلى حجرتـــها. ونامت هى الأخرى فى حجرتها وبقى توتـــو مـــع كريمـــة. قالت:

- أيام قليلة ونعود للدراسة. سأنشغل تماما.

كريمة أصغر منه بكثير. رغم هذا وصلت إلى السنة النهائية فـــى كلية العلوم. تود أن ينجح توتـــو هـــذا العـــام. حتى يستطيع أن يتزوجها.

لم يقـــل توتو لها كلمة توحى بأنـــه يحبـــها. لكنـــه يحدثها كثيرا. ويحكى لها عن أحاسيسه. قال لها وحدها عن كرهه لبسيمة منذ أن وطأت قدماها شقتهم.

لم يقل هذا لجدته ولا لأمها دولـــت. لـــهذا أحســـت عندما ترك البيت أن لبسيمة دخلا كبيرا فى هذا.

قال توتو :

- لدى رغبة فى أن أستذكر دروسى هذا العام بجدية.

ضحكت غير مصدقة :

- سترى، لماذا لم تأت بكمانك ؟

تحدث معها عن الموسيقى. قال أنه أصبح عازفا فى فرقة موسيقى الإذاعة. كانوا حينذاك فى الفراندة. قفزت من

مكانها، ودقت الأرض فرحة ثم قبلته فوق خده. لم يحدث هذا بينهما من قبل.

ابتسم لها، تتحدث وكأن شيئا لم يكن :

- لم تقل لى عن المكان الذى ذهبت إليه ؟
- كنت لدى صديق لى.
- من الكلية.
- لا. أعرفه من معهد الموسيقى.

شرد حينذاك. أحست كريمة أنه قد تغير كثيرا. فبدا أكثر هدوءا. وأقل حديثا.

- لاشك أن صديقك هذا. من نوعية خاصة.
- أجل. أسرته محافظة جدا.

* * *

خرج سيد ليلا. كان مهموما. لم تعد فرقته تعمل الآن. الحكش أخذ كل الزبائن. استطاع أن يهرب من تركية التى تلح عليه بأن يبحث عن صديقه توتو.

لولا خوفها من الفضيحة لصرخت. وجعلت الحارة كلها تشاهدها وهى تصرخ فيه وتعنفه، جلس على قهوة أبو دومة وحده. توتو عاد لأهله. وبخيت مشغول الآن ببروفات الإذاعة.

كله كوم، وما فعلته حليمة العالمة فيه، كوم آخر. لقد خذلته. وعملت مع غريمه الحكش، متحدية له، وهو الذى كان يحبها ويتمنى رضاها.

أمه مشغولة الآن بزينتها، لاشك هى تستعد لـــزواج جديد، أحس بالأسى، وبرغبة فى البكاء.

أين سيذهب الآن – لقد مل ركوب الأتوبيس، ومـــل الجلوس فى قهوة العوالم التى تذكره بحليمة والحكش

النقود تتناقص فى يده. ولا يستطيع أن يســأل أمــه شيئا.

أم حليمة تلح عليه كلما رأتـــه، أن يـترك العوالـم والأتوبيس، ويعود لدكان أبيه.

عندما مات أبوه أحس أنه قد خرج من القمقم. مـــلأ صدره بالهـواء النقـــى بعيـدا عـن الملابـس المسـتعملة ورائحتها. يكره جلسته وسط الصنايعية "يـــرف" الملابـس الممزقة.

أبوه كان يصادق رجال المبـــاحث، يــأتون لدكانـــه فيسرع إليهم بالقازوزة. يسألونه عن ملابس مسروقة يبحثون عنها. والده لا يحب الحرام. ولا يشترى الملابس المسروقة بأى ثمن. لكنه كان يقبض على اللصوص الذين يأتون لبيـــع ملابس يعرف هو أوصافها من المباحث.

تردد أمه دائما أنها غسلت كثـيرا ملابـس ملطخـة بالدماء. أصحابها قتلوا داخلها وأن تلـــك الملابـس كـانت ترقص أمامها فى "طســـت" الغسـيل. وأن بعضـــها كـــان موضوعــــا داخل شقتهم تلك، التى يسكنونها للآن. وفجـــأة، بعد أن انطفأ النور ليناموا. وجدت الملابس تقفز من الأرض حتى السقف، قام أبوه ورماها خارج البيت.

ركب سيد الأتوبيس وحده، الوقت متأخر. أين أيام زمان، وقت أن كان يأخذ الفرقة كلها فى الأتوبيس ليشاهدوا النسوة وهن يستحممن عند الفجر فى البحر، بعيدا عن أعين الرجال.

كانوا يضحكون طوال الطريق، ويتناولون طعامهم من أجرة الحفل الذى كانوا يحيونه. والنقطة.

الجو بارد الآن.

سار بالأتوبيس على الكورنيش. أحس بالوحدة. أراد أن يغنى كما كان يفعل، لم يستطع. خرج الغناء نحيبا.

فرح عندما اختار الخضرى بك بخيت وتوتو ليعملا فى الإذاعة. أحس أن الحظ ابتسم له هو خاصة. لم يكن يظن أن الحكش يعد عودته للنيل منه. ليهدم كل ما بناه. أشارت له امرأة، كانت تقف بجوار كازينو. جلست خلفه. ثم أشار له رجلان، كانا يقفان قريبا من محطة الأتوبيس. لم يكن سعيدا ككل مرة. لم يمازح الركاب كعادته. لقد أخطأ عندما فكر فى الزواج من حليمة. بل ظلم نفسه عندما أحبها.

صعد ركاب آخرون. أحيانا كان يحس أنه فى الصباح وأنه يقف على محطات الأتوبيس الرسمية. وأن الكمسارى "يزمر" له ليقف.

أشار له راكب بدين، يرتدى بذلة كاملة. وقف له، صعد الرجل. قبل أن يبدأ فى السير. قال الراكب :

- أين رخصتك ؟

أراد أن يسرع بالأتوبيس. إن يهرب منه. لكن سيارة ملاكى أتت من إحدى الشوارع المظلمة المواجهة

للبحر، هبط منها عدد من الرجال. لم يكن قد أخذ مليما واحدا من الركاب. أكمل الليلة فى قسم "باب شرقى".

فى الصباح أرسل رجل - من المباحث - إلى دكان أمه. أتت إليه، بكت للضابط مما زاده هما، وأخرجت مبلغ الكفالة من منديلها.

عاد إلى البيت كسيفا.

ضاع منه كل شئ. الفرقة والأتوبيس وحليمة العالمة.

* * *

اجتمع أهل البيت فى شقة فايقة. فهى الوحيدة فى البيت التى تمتلك مذياعا ..

تركية وابنتاها. وبخيت. وسيد الذى ركن بعيدا، نائما فوق فراشه واضعا ساقا فوق ساق. وفايقة تجلس على الأرض مستندة على الجزء الخالى من الكنبة تنتظر صوت بخيت بلهفة.

أشاعت النبأ فى الحارة (بخيت عوضين سيغنى فى الإذاعة اليوم) شاع الخبر فى الحوارى المجاورة. كل من لديه مذياع فتحه عن آخره. حتى يسمع أكبر عدد ممكن من الجيران.

ياسين قال لهم أن "يرفعوا" صوت المذياع. ليسمعه من "عشته".

سيغنى بخيت أول أغنية له فى الإذاعة، الساعة الخامسة +

عندما ذكرت المذيعة اسم بخيت. زغـــردت فايقــة فرحة.

وغنى بخيت. كان يجلس محنيا رقبته. وفايقة تتابعه فى إعجاب.

تعرف جميلة أن توتو يعزف مع الفرقة المصاحبــــة لبخيت فى الغناء. أصاخت السمع لعلها تســـتطيع أن تمـيز صوت كمانـــه، انثالت الدموع فوق خديها. مسحتها مسرعة، فالوقت لا يسمح بالبكاء. رددت تركية فرحة :

– والله، وواحد من سكانك يا تركية يغنى فى الإذاعة.

أستحسن الناس صوت بخيت. لدرجـــة أن البعــض ردد الأغنية فور انتهائه من غنائها مباشرة.

* * *

فى نفس الوقت الذى كانت فايقة تجمع حولـــها أهــل البيت لسماع بخيت. اجتمعت الأسرة حول توتو. أول أغنية تذاع ويكون – هو – مشتركا فى العزف فيها.

جلس الأب مغطيا صلعته. فقد بدأ البرد يدخل مـــن فتحات النوافذ والأبواب.

والعجوز تجلس مستندة علـــــى عصاهـــا كعادتـــها. وكريمة يكاد وجهها الأحمر يشتعل نارا من الفرحة. بســـيمة رغم جسدها العملاق تتحرك فى خفة من المطبـــخ وإليــهم. لتقدم لهم الحلوى والمشروبات.

عزفت الفرقة مقدمة الأغنية. كان هناك فاصل كامل لعزف منفرد على الكمان. قال توتو لأبيه فرحا :

– ذلك عزفى.

قفزت كريمة من مقعدها فرحة وصفقت.

ابتسمت العجوز لتوفيق. أدار الرجل وجهة للناحيــة الأخرى مبتسما فى حياء.

بسيمة وقفت داخل شبشبها. عندما رأت كريمة هكذا. ابتسمت، أحست أن البنت تحب توتو. الوحيدة التى لم تــأت هى دولت لو كانت موجودة الآن. لغضبت. وربما نســيت نفسها، ولامت ابنتها أمامهم.

تحس بسيمة أن توتو تغير منذ أن جاء. شروده الذى كانت تعاتبه عليه كثيرا. زاد الآن. وصار يشغلــه الوقــت كله. لكنــه يحدثها باحترام شديد. لم تلقه منه مــن قبــل. أحست أن كلماته القليلة، مختزلة ومنتقاه. وكأنه يقرأها مــن كتاب.

ابتسمت بسيمة ثانية. فالولد توتو لم يهتم بما فعلتــه كريمة مَنْ أجله. جلس وكأن شيئا لم يكن.

غنى المطرب بخيت عوضين. قال توفيق :

- مطرب صوته جيد. تعرفه يا توتو ؟

- أجل.

ثم تدارك نفسه وقال :

- صاحبته فى تسجيل البروفات. لكننى لم أكن أعرفه مــن قبل.

كانوا يصيخون السمع للموسيقى أكثر مــن الغنــاء. ومن وقت لآخر تقول كريمة :

- ها هو توتو.

أحيانا تكون آلة أخرى غير الكمان التى تعزف.

بعد أن انتهت الأغنية قالت :

- المفروض أن يذيعوا أسماء العازفين. كما ذكـــروا اســم المغنى والمؤلف والملحن.

قال توفيق ضاحكا :

- عندك حق.

ثم قال لابنه :

- أخشى أن تعطلك الموسيقى عن دراستك.

دخل توتو الفراندة. أسرعت كريمة خلفه. تابعوهـــا فى ابتسام. قالت العجوز لتوفيق :

- لعلك لاحظت مدى اهتمام البنت بابنك.

ابتسم ولم يجب.

قالت بسيمة :

- لايقين لبعض.

صاح توفيق :

- لا أريد أن ينشغل الولد بهذا الآن. تكفى الموسيقى التـــى عطلته كل تلك السنين.

- ابنك لو سار فى طريقه دون عثرات لكـــان الآن متزوجـــا ولديه أطفال.

- ماذا تقصدين ؟

- أقصد. أن نعلن خطبتهما معا.

أراد توفيق أن يثور. لكن العجوز، غير أنها عجوز ويجب أن يحترمها ولا يغضبها. هـــى ذات فضـــل عليـــه. أعطتـــه من مالها الكثـــير فـــى حيـــاة ابنتـــها. والآن هـــو المتصرف فى أموال توتو وأملاكه التى ورثها عن أمه. قال:

- بعد أن ينتهى من دراسته.

- أخاف أن أموت قبل أن ينتهى من دراسته. وأخاف أيضا على ابنة ابنتى من لهفتها عليه.

- لو فعلنا هذا لن ينجح توتو أبدا.

قالت بسيمة بعد أن أحست أن العجوز ستثور :

- يا توفيق لن نخسر شيئا. حفل خطوبة. وبعد أن يكملا دراستهما يتم الزفاف.

عادت العجوز إلى بيتها مع كريمة. وبقى توتو مع أبيه وبسيمة.

قال توفيق فى نفسه وهو يودع العجوز :

- ربما توتو يحل المشكلة برفضه الزواج من البنت.

(١٣)

المبلغ الذى تقاضاه بخيت من الإذاعة ضاع بعد أيام قلائل. وهو فى حاجة إلى نقود ليعيش. سار إلى قهوة أبـــو دومة. أسرع إليه البعض فرحين :

- أستاذ بخيت عوضين أهلا بك.

أجلسوه بينهم. تحدث البعض عن أغنيته التى أذيعت منذ أيام.

استأذن منهم ودخل القهوة، أسرع ياسين إليه :

- أهلا بخيت.

- أريد أبو دومة.

- أى خدمة ؟

- لا أخفى عليك يا ياسين. لم تعد معـــى نقـــود. أريـــد أن أعمل.

- الحكش لم يطلبك لتعمل معه.

- لا.

اقتربا من مكتب أبو دومة. كان بخيت يعتقـــد أنـــه سيجرى إليـــه ويقبله ويهنئه بالأغنية التى أذيعت له. لكنـــه بدا وكأنه لم يسمع عنها.

- بخيت يريد أن يعمل يا معلم.

- وماله. لو طلبت فرقة مغنيا سأرسل إليك.

- شكرا يا معلم.
بعد أن استدار. عاد إليه ثانية :
- معلم، ألم تسمعنى فى الإذاعة ؟
- سمعتك. ياسين كان يتحدث عنك طـوال اليـوم. جعـل الإسكندرية كلها تسمعك.
كاد بخيت يقول له :
- لماذا إذن لم تحدثنى عن هذا ؟.
بعد أن خرجا. قال ياسين له :
- المعلم لا يبدى انبهارا بأحد عملائه. حتـى يسـتطيع أن "يشغله" بعد ذلك.

* * *

عندما اقترب بخيت من البيت. سمع تركية تصيـح. لا يدرى فى من :
- افسحى الطريق يا بنت للشيخ بخيت.
أحـس بأنها ازدادت تقديرا له منذ أن سمعته يغنـى فى الإذاعة.
قبل أن يضع قدميه فوق أول درجـة مـن درجـات السلم. سمع فايقة تناديه :
- بخيت. بخيت.
صوتها كان خافتا. لكن - لاشك - أن تركيـة قـد سمعته.
- تحت أمرك.
- أريد أن أتحدث معك كلمتين.
امسكت يده وسارت ناحية شقتها. وأغلقت الباب :

- اجلس يا بخيت.
- ماذا هناك ؟
- كل الخير. الولد سيد خرج منذ لحظات. منذ حادثة الأتوبيس وهو لا يطيق البقاء فى البيت.

فهم مقصدها. تريد أن تشعره أنها فى الشقة وحدها الآن.

- أعمل لك شايا ؟
- بربك تحدثى فيما تريدين حتى أصعد إلى كوخى.
- سأتحدث. سأتحدث. لكن لا تغضب.

لكنها صمتت. لا تعرف كيف تبدأ.

- تريدين شيئا ؟
- يا بخيت. أنا لا أعرف كيف أبدأ. الموضوع يدعو إلى الخجل.
- لو أعرف الموضوع لساعدتك.
- كل هذا الاهتمام الذى أبديه لك ولا تعرف الموضوع للآن.

لم يجبها.

- يا بخيت، أنا ست دوغرى. ولا أحب العوج، اسأل عنى يقولون لك. وليس عيبا أو حراما ما أريده. مادام على سنة الله ورسوله.

قام بخيت فجأة. وقال وهو سائر إلى الباب :

- فهمت.

تحسس الباب وحده. أمسك المزلاج وفتحه. لم تستطع - هى - أن تقول شيئا. ولم تخرج وراءه. فهى تعلم أن تركية وابنتها ينتظرانها فى الخارج.

أغلقت الباب وبكت غاضبة. فهو لم يقدر تضحيتها وتجشمها المشاق لتقول له ما قالته.

تركها غاضبة ولم يقل لها شيئا.

* * *

لم يعد سيد يطيق البقاء فى البيت قليلا. ولا يطيق البقاء طويلا فى أى مكان. أمه دفعت له مبلغا من المال لمحام. وعده المحامى بأن يجعلهم يكتفون بفصله.

يمر أمام موقف الأتوبيسات فى المنشية. يسير على الرصيف البعيد. يتابع الأتوبيسات. يخشى أن يراه سائق أو كمسارى فينادى عليه.

يرى الأتوبيس الذى كان يعمل عليه. يرى السائق الذى يركبه الآن. أجل. هو أتوبيسه. يعرفه من بين ألف أتوبيس. فهو كان يمسحه بيديه. يصعد فوق الرفرف. ويمسح زجاجه الأمامى. ثم الخلفي. هو الذى علق بيديه الآيات القرآنية التى فى أسفل التابلوه.

يسير ناحية البحر، الجو بارد الآن. لكنه لا يحس شيئا.

لن يجلس ثانية على قهوة أبو دومة. ولا أى قهوة لها صلة بالعوالم. حتى لا يقابل فيها من يعرفونه. سيسخرون منه. سيقولون أن الحكش - تلميذه - خدعه ورماه وأصبح هو الأسطى الكبير صاحب الفرقة.

أجل. إنهم لا يرحمون. سيقولونها له فى وجهه.

أمه تعطيه أموالا كثيرة هذه الأيام. لاشك هى تنوى أمرا. وتريد أن تسكته بالنقود. تلح عليه بأن يعود إلى

دكان أبيه. لن يرف الملابس كما كان. سيجلس على المكتب يحاسب تجار الروبابيكيا. ويدفع ثمن الملابس المشتراه ويحاسب الغسالات وباقى العمال فى الدكان.

لا. حتى هذا لا يطيقه.

يجلس كل يوم فى مقهى مختلف. يدخن الشيشة طوال الوقت. ويشرب القهوة يقوم متأخرا. يعود إلى البيت. تكون تركية وابنتاها قد دخلن الشقة ..

يرتاح من حديثهن عن توتو، الذى تزوج البنت وهرب. ولابد أن يجدنه. تنام فايقة. وهو يدور وسط الشقة، كأنه حيوان مذبوح ينزف حتى يموت.

حتى توتو عاد لأهله ونسيه.

يمسك المذياع. يدير المؤشر يبحث عن الإذاعات البعيدة. يسمع الموسيقى والأخبار، وأغانى لا يعرفها. ينام بعد أن يعييه السهر، والمذياع يخرفش فوق صدره.

* * *

قبل أن ينام بخيت. سمع دقات خفيفة ومرتعشة على الباب، ثم توقفت الدقات، انتظرته حتى فتح الباب - كانت جميلة تقف أمامه :

- أستاذ بخيت.

- جميلة. ادخلى يا ابنتى.

دخلت، بكت :

- ما الذى يبكيك ؟. حدث شيء ؟

- لقد جئت من أجل توتو. أنت تقابله فى الإذاعة. قل له أن يعود. إننى لم أغضبه. لماذا هرب منى ؟.

- يا ابنتى. هو لا يزال يدرس. وحضوره إلى هنا كان مؤقتا.

بكت ثانية :

- لكننى أحببته.

ربت فوق ظهرها قائلا :

- لا تبك. سأحدثه عندما أقابله. سأحدثه.

مسحت دموعها. وأسرعت إلى الدرج قبل أن يراها أحد من سكان الأكواخ.

* * *

كان توتو يعزف على كمانه بالداخل. وأبوه يرقد فوق فراشه حزينا. بسيمة ترتدى ثوبها العارى. الذى يكشف عن جسدها المكتظ.

- يا رجل. لا تهتم. هى جدة الاثنين. وتريد الخير لهما.

- إنها امرأة مخرفة. أخطب للولد وهو مازال يدرس فى الكلية.

- عام واحد وسيصبح مهندسا.

- عام يا بسيمة. إنه لا ينجح أبدا من أول مرة. فما بالك بالبكالوريوس.

- توتو تغير يا توفيق. لم يعد كما كان. إننى على ثقة أنه سينجح هذه المرة.

أشاح بيده، ونقل جسده إلى الناحية الأخرى، ولم يجبها ثانية.

* * *

تحدثت الجدة مع ابنتها دولت عن هـــذا. صــاحت الابنة غاضبة :
- يا أمى. توتو لا يصلح للزواج. إنه مدلل منذ ان ولدتـــه أمه. سمعت عن رجل اسمه توتو.
- اسمه تيمور يا دولت. وأنت تعلمين.
- أعلم. لكن الكل يناديه "توتو". حتى أبوه.
- الولد ابن درية الغالية. التى لم تغضبنى أبدا. ولابـــد أن أزوجه ابنتك.

بكت دولت. وجلست ويداها ملتصقتـــان بصدرهـــا. ورقبتها منتفخة. صاحت الأم وهى تدفعها بعصاها :
- أنت بلهاء هكذا منذ أن ولدتك. انظرى إلى ابنتك. إنـــها تجرى خلفه كلما رأته. إذا ما جاء لا تـــرى ســواه. مــاذا تنتظرين ؟
- يا أمى. هو لم يبد إعجابا بها. ولم يطلبـــها. ولا حتـــى أبوه. أنت فقط التى تصرين على هذا.
- لأننى أعرف أكثر منكم جميعا. أتريدين أن ننتظر حتـــى تهرب معه.

ازداد انتفاخ رقبتها. وانثالت الدموع فـــوق وجهـــها الممتلئ.

أمها رغم كل تلك السنوات. مازالت تذكرهـــا مـــن وقت لآخر، أنها قد هربت مع زوجها.

قامت الأم بصعوبة. سارت حتى مقعدها. انحنـــت، وضعت رأس دولت فى صدرها وربتت فوقها :

- ليس لى سواك. وابن درية وابنتك. دعينى أسعد بـــهما. لا تكونى مثل الزمان. كفانى ما حدث لى.

قامت دولت، وقبلت أمها.

قالت العجوز بعد ذلك :

- توفيق ليس له أبناء. الولد ابنى أنا. ولو رفــض فســأقيم الحفل فى بيتى أنا.

* * *

يعــرف توتو فيما تفكر فيه جدته. نظراتها إليه وإلى كريمة. وحديثها الهامس مع أبيه. ويحس منذ أن عاد مـــن غربال أن كريمة ترغبه. لماذا بعد أن عاد، مع أنــها تفعــل هذا منذ زمن بعيد. كانت تأتى من أجله. تلمس كمانه فـــى غيابه بحنـــان. لعله عرف أشياء كثيرة فـــى الأيـــام التـــى قضاها فـــى غربال. أو أن زواجه ومعاشرته لجميلـــة قـــد لفتت نظره لتلك الأشياء التى لم يكن يدركها قبلها.

أجل. فقد كان تفكيره بعيدا تمامـــا عـــن الجنـــس. أصدقاؤه فى الكلية يتحدثون عن البنات. يصفـــون الســـيقان والجسد. هو لم يفعل هذا أبدا. لـــم تشـــده ســـوى الوجـــوه الجميلة. أعجبه فى جميلة وجهها المستدير. وأنفها المستقيم. والحاجبان الكثيفان. كان يفكر فيها كرسام يعجب بوجه جميل يصلح للرسم.

" يريدون أن يزوجوه كريمة. هل سيتزوج ثانيـــة ؟. وجميلة التى لا يعرف عنها شيئا ماذا سيفعل بـــها ؟. جـــاء بخيت إلى الأستوديـــو. انتظره حتى انتـــهى مـــن الغنـــاء.

أسرع توتو إليـــه. ضمه لصدره، قبله. فهو لم يـــره منـــذ وقت طويل.

- كيف حالك يا باشمهندس ؟. من لقى أحبابه .....

- لا. لم أنسك. لكن الدوامة تجرفنى داخلها.

- أية دوامة ؟. لقد عدت لبيتك. للهدوء والسكينة.

- لا. مازلت أعيش فى الدوامة.

- تفكر فى جميلة ؟

- أفكر في كل ما حدث لى فى غربال. سكنى فى الكـــوخ. وارتدائى ملابس قديمة من دكـــان فايقـــة، وزواجـــى بـــهذه الطريقة. كل شىء أفكر فيه للآن. وربما كل ليلة.

- تعرف، ماذا حدث لسيد ؟

- لا، ماذا حدث له ؟

- ضبطوه بالأتوبيس على الكورنيش.

- مسكين، الفرقة ضاعت منه أيضا. أريد أن أراه يا بخيت. أعطه نمرة تليفونى.

- وجميلة تسأل عنك.

- حدثتك ؟

- أجل. صعدت إلى فى الكوخ. وبكت.

- مشكلتى مع جميلـــة تكاد تقتلنى. كلما تذكرتها أحسســـت بأن نهايتى قادمـــة، لو واجهت أهلى سأقضى على الكثـــير. بل سأقضى على نفسى فى الأول.

- مسكينة جميلة.

- كلما حاولت أن أتحدث مع أبى فى هذا. أخاف.

أراد توتو أن يغير الموضوع، بعد أن ضاق به. قال :

- ألديك تسجيل الآن ؟
- كلا. إنما جئت من أجلك. سألت الخضـــرى بـك فـى التليفون عنك. قال عن موعد البروفة.

* * *

تغير سيد كثيرا. وجهه تحول للأسود. وبدت عظام وجهه ناتئة. وحديثه كالمخدر. قال فى برود شديد :
- أهلا توتو.
- تجلس هنا كثيرا هذه الأيام ؟
- لا، ليس لى مكان ثابت.

جاء الساقى حاملا شيشة سيد :
- تدخن الشيشة الآن ؟
- لو وجدت حشيشا لدخنته.

أحس توتو أنه يتحدث بعدوانية. وأنـــه ليــس ســيد الوديع الذى كان يعمل من أجل الآخرين.
- ماذا بك يا سيد ؟
- قال بخيت أنك تريد مقابلتى.

كان الساقى يضع الفحم فوق دخان الشيشة.

شد سيد نفسا طويلا. أحس توتو من خـــلال النفــس الطويل أنه يريد أن يبقى وحده. بعيدا عن كل من يعرفه.
- ما هى أخبار حليمة ؟
- ضاعت مثل كل الأشياء التى كانت معى.
- لقد أتيت إليك بلا شئ. ووقفت معى.
- وماذا فعلت أنت أيضا. تركتنى.

-لم أتركك. لكننى هربت من واقع أحسست أنـــه يخنقنـــى. ويجب عليك - أنت أيضا - أن تهرب من واقعك هذا. لديك أشياء كثيرة أجمل بكثير من كل الأشياء التـــى ضاعـــت. مازلت شابا. وبالنسبة للعمل. دكان أبيك يستطيع أن يعطيك عائدا أكثر مما كنت تأخذه من الأتوبيس وفرقة العوالم.

مط شفتيه فى لامبالاة :

- لابد أن تعود إلى دكان أبيك.
- حاولت ولم أستطع.
- حاول ثانية.

وضع الساقى قهوة توتو. قال سيد محـــاولا تغيـــير الحديث.

- اشرب قهوتك.

وعاد هو إلى شيشته. أحس توتو أن الوقت سينقضى دون أن يحدثه فى الموضوع الذى طلبه من أجله.

- كيف حال جميلة ؟
- أمها وأختها تطاردانني. تريدان أن أريهما بيتـــك. قلـــت لهما أننى لا أعرفه.
- لو أرادتا معرفته لوصلتا إليه.
- تفكر تركية الآن فى مقابلة أبيك فى مكتبة البلدية.
- المجنونة.

ابتسم سيد رغما عنه :

- لقد تركت ابنتها فى حالة وسط بين الزواج والعزوبية.
- سيد، أريدك أن تفاوضهم. أستطيع أن أدفع مبلغا مناســـبا من المال ليكفوا عن مطاردتى.

- كم ؟
- لا أدرى. ولا أملك شيئا الآن. لكننى أنوى أن أطلب من جدتى.
- لكن جميلة لا تريد سواك.
- ليتنى أستطيع فعل شىء من أجلها.

أومأ برأسه. ووقف إشارة إلى أنه يريد أن يعود.

وقف توتو، صافحه وسار.

(١٤)

سأل الحكش أخته عن الفتيات اللاتى سيتزوجن فى القريب من الحارة. أو الحوارى المجاورة. وكذلك الشباب. لو كانت تعرف.

قالت له عنهن، وسأل أمه كذلك. وأم يوسف وكل من يستطيع سؤاله. بل أرسل فى طلب حربية وسألها عن ذلك.

ذهبت أختها لصديقاتها. عرضت عليهن خدمات أخيها على أساس :

إنه أولى من الغريب. فهو ابن البلدة. ومن حيهم.

إنه سيأتى لهم بفرقة لم تأت إلى غربال من قبل.

وسيحصل على أجرة أقل بكثير من المتوقع.

عارضت أمه أول الأمر. لكنه ألح عليها :

- إنه رزق يا أمى. لا تقفى فى طريق رزقى.

وافقت أخيرا، حملت ملاءتها وقالت ما أرد لها أن تقوله.

لم يكتف بهذا. بل ذهب بنفسه إلى بعض الأسر. ليعرض عليها خدماته.

وعاونه أقاربه وأصدقاؤه فى ذلك. قالوا لمن ينوى إقامة حفلا :

- الحكش منا وعلينا. وهو أولى من الغريب.

حتى صار من العيب أن يقام حفل فى غربال لا يحييه الحكش.

طبع كروتا ملونة ذاكرا بها (عبد الحميد عبد الله الشهير بالحكش، وكيل الفنانين) وذكر فى الكرت تليفون "علاف" قريب من بيتهم، فكان العلاف ينادى عليه أو على أحد أقاربه. فيجرون إلى التليفون. فتعرف الحارة كلها أن الحكش لديه حفل. ويطلبونه بالتليفون من أجل ذلك.

وتغير حاله. كسب كثيرا. النقطة من أهالى غربال نزلت عليه كالمطر.

أحست أمه أن عمله هذا غيرهم جميعا. فهو لا يبخل عليهم بشيء. تلاشى تدريجيا الإحساس بالخجل لأنه يعمتل مع العوالم.

لكن حربية - رغم سعادتها لأنه أصبح غنيا ومشهورا فى الحى - شعرت بالخوف من أن تزداد الهوة بينهما؛ فلا يتزوجها. خاصة أنها لا تقابله إلا نادرا فهو لم يعد يذهب إلى الشونة أبدا. أخوته الصغار وعماله يفعلون هذا بدلا منه.

تذهب أحيانا لحفل يحييه. دون أن تكون مدعوة. لكى تراه. تشير النسوة إليها :

- حربية التى سيتزوجها الحكش.

تشعر بالسعادة. لهذا تهتم بملابسها. فلا تذهب لحفل بفستان سبق أن ذهبت به فى حفل آخر من قبل.

كان يعاملها بجفاء أحيانا.

أعطى الحكش لحليمة العالمة مبالغ كثيرة. لم تحصل عليها من قبل. لا مع سيد ولا مع غيره.

اشترت ملابس جديدة، زادتها ثقة بنفسها. كانت تجلس حزينة وصامتة معظم الوقت. الآن هى تضحك وتمازح الجميع، لم تعد تذهب إلى قهوة أبو دومة تسأله إن كانت هناك فرق تطلبها أم لا.

أرسل أبو دومة إليها. قالت له :

– لن أعمل سوى مع الحكش.

– فرق كثيرة تطلبك.

– إنه يدفع أكثر من أى فرقة.

– سأجعلهم يدفعون لك أكثر.

لكنها لم تتأثر بأى إغراء. الحكش يعاملها باحترام. تحس بحيرة عينيه عندما يحدثها.

فى أول مرة عملت معه كانت أصابعه ترتعش وهو يعطيها نقود آخر الليل. ثم أصر أن يوصلها بتاكسى من مكان الحفل.

كما أن أبو دومة كان يتجاهلها قبل أن تعمل بصفة مستمرة مع الحكش. أحيانا كانت تبقى بلا عمل بالشهر والاثنين. ما الذى حدث لها. لاشك أن عملها المستمر مع الحكش جعل فرقا كثيرة تحس بها وتطلبها.

أمها أحست أن أشيـاء جديـدة تحـدث. اهتمامـها بالحكش وشرودها الدائم، قالت :

- إنك تعشقين أصحاب الفرق عادة.

تشير إلى ما كان بينها وبين سيد. قالت حليمة :

- لكن الحكش شئ آخر غير سيد.

- بل سيد أحسن منه - فى نظرى - العمل مع العوالم ليس له أمان. لقد ضاع عمرى فى هذه المهنة؛ وأخبرها جيـدا. الأموال التى تأتى منها ليس بها بركة. تضيع كما جـاءت. والحكش لن يظل هكذا طويلا.

- إنه يكسب كثيرا.

- سيد لديه دكـان مضمون. هذا هو الحل يا حليمة. وذنبك على جنبك.

شـردت. ثم جلست على مقعدها أمـام التسـريحة تكمل زينتها. فموعد الحفل اقترب.

لـم يعد صبحى السورى يذهب إلـى فرقـة أحمـد أفندى. فعمله مع الحكش أخذ وقته كله. فالحكش يعتمد عليه كثيرا، ولكى يغريه جعل النقطة معه هو، ليشعره بالأمان.

يبحـث أحمد أفندى - الآن - عـن راقـص يحـل محله. يقولـون أن عددا كبيرا تقدم إليـه. لكـن عندمـا رقصوا أمامه. كانوا أقل بكثير من صبحى. فرفضهم كلهم.

فى بعض الأحيان يأتى الحكش حفلتـان فـى ليلـة واحدة. يضطر حينذاك أن يجعل صبحى يدير حفلا منـهما، لكن باسمه هو (الفنان عبد الحميد عبد الله الشهير بالحكش).

* * *

أرادت فايقة أن تقيم حفلا فى شقتها ابتهاجا بزواجها.

ضحكت تركية من هذا.

قالت :

– وترتدى بذلة فرح ؟

– لا، حفل صغير. حتى يعرف الناس أنى تزوجت.

سخرت منها زكية طويلا. حتى صرخ ياسين فيها قائلا :

– كفى يا زكية. عيب.

كانت فايقة سعيدة. ولا يمكن أن تغضبها مثل تلـــك الكلمات. قالت لياسين :

– دعها تضحك. إنها سعيدة من أجلى.

لكن ياسين كان حزينا. أحست فايقة به عندما دخـــل حجرته وأغلقها خلفه.أسرعت إليه. قالت :

– ياسين. غاضب لأنى سأقيم حفلا.

– أجل. ألم تشعرى بكل ما يحدث حولك

– ليس لى شـــأن بما يحدث حولى. المهم عندى رضاك أنت وصديقك بخيت. إن لم يكن لكما رغبة فى إقامة حفل فلــــن أقيمه.

– أجل. بخيت ليس لديه رغبة فى ذلك. يريد أن يتم الزواج فى مكتب المأذون.

– أمرك وأمر بخيت فوق رأسى.

* * *

عاد بخيت من لدى المأذون. ياسين ممسكا بذراعـــه وبعض الرجال من الحارة حوله. سيد لم يظهر طوال اليـــوم

- ياسين قال لبعض الرجال - بعيدا عن فايقة وبخيت - إنه رآه يبكى وهو خارج من البيت.

سار سيد كعادته، ملابسه منسخة. لم يعد يهتم بنفسه كما كان. أمه ستتزوج بخيت الضرير اليوم .. عندما تزوجت هريدى تشاجر معها. ولولا الناس لطرد هريدى، أو طعنه بمطواة. لكنه الآن عاجز تماما. لابد أن يترك البيت والحى كله.

تذكر حديثه مع توتو فى القهوة. إنه يريد منه أن يكون قويا. أجل. الحكش سرق الفرقة منه، أم سرق منه صوته الجميل. ومهارته فى العزف على الآلات. لماذا لا يحاول ثانية ؟.

ذهب إلى قهوة أبو دومة. دخل من الباب مسرعا حتى لا يراه الذين يجلسون فى الخارج. ساق آخر يعمل بدلا من ياسين. فهو مشغول الآن بزواج صديقه وبلدياته. وقف أمام أبو دومة، صاح الرجل دهشا :

- سيد.

- أريد أن أعمل يا معلم.

- انس يا أبا السيد. الحكش كوش على كل شئ. لم يتبق لكم شئ.

- لا أريد أن أكون صاحب فرقة. أريد أن أعمل أى شئ. مغنيا، طبالا، أى شئ.

- آه من عينيه. سأرسل لك إذا ما طلبت فرقة هذا.

عاد من نفس الباب. وأسرع إلى الشارع. الحكش كوش على كل شئ. أبو دومة لن يسأل عنه. واضح من طريقة حديثه أنه لن يسأل عنه.

سار ناحية دكان أبيه فى السوق.

كان الدكان مغلقا. فقد أعطت أمه العمال اجازة ابتهاجا بزواجها.

سار ناحية الكورنيش. سيجلس فوق أى قهوة هناك. يدخن الشيشة ويتابع وجوه المارة. بعد ذلك، سيذهب لأى لوكاندة "فقايرى" لينام فيها.

* * *

أعدت شقة العجوز الكبيرة للحفل. جلست كريمة وسط الصالة الكبيرة. ترتدى الملابس البيضاء. أمها تقف بجوارها. مازالت مكتئبة. تنفخ وجهها غضبا.

تجلس العجوز فوق مقعد، تمسك عصاها. وتوفيق يقف بعيدا. صلعته العارية تلمع. وذراعا بسيمة العاريتان تلمعان أيضا. تدور بجسدها العملاق، تفتح فمها الواسع، وتحرك خديها الممتلئتين ضاحكة.

بعض أقارب العروسين يقفون يتحدثون.

وتوتو يرتدى بذلة جديدة. يتحدث مع شاب قريب له، لم يقابله منذ مدة طويلة.

قال الشاب :

– بيضا لك فى القفص.

– لماذا ؟

– لأنك ظفرت بكريمة. الكل يحسدك عليها.

شعر توتـو بالدهشة. فقد وافـق علـى الخطوبـة ويتمنى ألا تتم، ليس كرها فى كريمة. فهى رقيقة وحانيـة. لكن كرها للتجربة نفسها.

قالت فتاة قريبة لبسيمة :

- نريد أن يعزف لنا العريس مقطوعـة موسـيقية بمناسـبة الخطوبة.

هلل البعض، وصفق البعض، ونسيت كريمة نفسـها، فأسرعت تدق الأرض بقدميها وأمها تجرى خلفها لتعيدها إلى مكانها :

- لأجلى أعزف مقطوعة يا توتو.

قال توفيق فى ضيق :

- الوقت غير مناسب للعزف.

عزف توتو. كل من سمعه من قبل. أكد أنـه قـد تغير. وأن حركـات قوسه فوق الأوتـار أصبحـت أكـثر مرونة وأكثر حركة. اتصاله بالعازفين فى فرقـة موسـيقى الإذاعة علمه كثيرا.

تتحرك كريمة كأنها ترقص. تطير كالفراشة. تحلق بردائها الأبيض قريبا من النجفة الكبيرة المعلقة فى السـقف. وأمها تشدها لكى تقف على بعضها.

فتاة قريبة للعجوز من بعيد. وقفت وسط مجموعـة من الشبان تحاول تقليد دولت في غضبها. تنفـخ أدواجـها. وتشد قامتها. وتحجر عينيها.

قالت العجوز أمام كل الأقارب. أن زواج توتو مـن كريمة أعباؤه عليها هى. من أثاث إلى حفلات إلى كافة شئ.

قبلتها كريمة ممتنة. لكن توتو لم يجد دافعا لتقبيلها.

* * *

صحا سيد فى حجرته بلوكاندة "النوم المريح" متأخرا، ارتدى ملابسه وسار تناول غـداءه فـى مطعـم ملاصـق للوكاندة.

سار فى الشارع. لا يدرى ما الذى أتـى بـه إلـى العطارين. السوق أمامه. وصانعو الأقفال ومفاتيح الأبواب. الذين يمرون فـى الشوارع ينادون (باب عمر) يقفـون فـى ذلك الوقت بعرباتهم. أو يضعون صناديقهم على الأرض.

الدكان أمامه. دخله. بعض العمال القدامى عرفوه. أما الآخرون فلم يروه من قبل. قال أحدهم :

– ابن المعلمة فايقة.

لم يجد هريدى بينهم. سألهم عنه. قال أحدهم :

– منذ أن تشاجر مع المعلمة. لم يدخل الدكان ثانية. تـرك العطارين كلها. يعمل الآن "رفا" فى الرمل.

أخذ ينظر إلى كل الأشياء فى شرود. وقت طويل لم يأت إلى هنا.

جلس فوق المكتب. نفس المكان الذى كان يجلس فيه أبوه. كل العمال يعلمون أن فايقة تتزوج الآن. أعطتهم أول أمس مبالغ من المال بمناسبة زواجها.

وقفت عربة كارو يجرها حمار. قائدها يلبس قبعـة فوق رأسه. وقميصا ملونا. قال :

– أين المعلمة ؟

ثم ضحك فى سخرية :

- آه. المعلمة تتزوج.

أشار له بعض العمال من بعيد بأن يكف.

دخل الرجال الدكان. رأى سيد جالسا على المقعد. ظنه زبونا جاء ليشترى ملابس بدلا من ملابسه المتسخة والمهملة التى يرتديها الآن.

مساعد الرجل حمل الملابس التى يريد بيعها. أحد العمال عد الملابس ثم قال :

- خمسة عشر جنيها.

مد سيد يده ناحية درج المكتب. هكذا كان يفعل أبوه منذ سنوات. أخرج النقود وضعها فوق زجاج المكتب. حملها الرجل ذو القبعة وقاد عربته وسار.

تحت الزجاج صورة له وهو طفل يبتسم. كان يميل للامتلاء. وصورة لوالده . وصورة لأمه وهى صغيرة.

قال العامل الذى عد الملابس وفحصها :

- نسيتنى يا سيد ؟

كان شاردا، تائها. يعرف ان هذا الرجل يعمل فى الدكان من قبل أن يموت أبوه. لكنه لا يذكر اسمه :

- أنا منصور يا سيد.

أومأ سيد برأسه. قال منصور لعامل صغير :

- هات قهوة للمعلم.

أسرع الولد داخل السوق.

* * *

صفق الجمهور لبخيت طويلا. طلبوا منه ان يعيد المواويل التى يغنيها. ثم غنى أغنيته الأولى. ثم الثانية.

اشترت فايقة تذاكر كثيرة. عددا كبيرا جدا من أهالي الحارة كانوا يجلسون فى الصالة. صفقوا بحماس. أحس بخيت بهم. ابتسم وهو يغنى.

الحكش لم يذهب إلى المسرح رغم انه لم يكن يحيى حفلا فى هذه الليلة. سمع الحفل من المذياع. قال لأخته :

– تصورى، بخيت هذا فلاح، جاء من بلده لعلاج عينيه. كان يغنى فى فرقتى، يغنى الآن فى الإذاعة.

– ليتك تطلبه يغنى معك الآن. فصوته جميل. ومادام يغنى فى حفل كبير مثل هذا، فلابد أنه أصبح مشهورا.

كان الحكش غاضبا. فلقد سمعه الخضرى بك – مسئول الغناء فى الإذاعة – قبله. ولم يطلبه ليغنى مثل بخيت. رغم أنه يقلد محمد رشدى وعزت عوض الله وعبد المطلب كل الفرقة كانت تقول أن صوته خليط من الثلاثة معا.

ياسين كان يجلس فى الصف الأول. صرخ فى زكية ودفعها فوق الفراش عندما عارضت ذهابه. قال : "كله إلا بخيت".

تركية لم تتدخل هذه المرة. أحست أن ياسين لن يبق فى الفرش مهما فعلوا به، شعر ياسين بالانتشاء عندما سمع مذيع الحفل يذكر اسم بخيت.

أقسمت فايقة فى نفسها أن تبخره اليوم من كل عين رأته فى الحفل. بل من الذين يسمعونه فى المذياع أيضا.

جلست ليلتها بجواره على الأرض. نفخت فى نار المدفئة - شم ياسين - من عشته - رائحة البخور.

ضحك بخيت :

- اعقلى يا امرأة. على أى شئ تبخريننى.

- كل الذى حدث الليلة. ولا تريدنى أن أبخرك. سأبخر نفسى أيضا. سيحسدوننى لأننى زوجتك.

بعد أن بخرته جلست بجواره :

- من الآن سأكون خادمة لك. لن أدعك تعمل فى الأفراح الصغيرة بحثا عن نقود.

قام بخيت :

- من أين سأعيش، ما تدفعه الإذاعة لى لا يكفينى وحدى.

- أموالى كلها تحت أمرك.

قام بخيت :

- لا تتحدثى فى هذا الموضوع ثانية.

لصق ياسين أذنه فى حديد النافذة المفتوحة. مادام بخيت قد حقق كل هذا النجاح الليلة، فلابد أن تعوى فايقة كما كانت تفعل أيام هريدى.

لكنه لم يسمع شيئا. فقد أصر بخيت - منذ أول ليلة - أن ينتقل السرير للحجرة الداخلية، التى بلا نوافذ، حتى لا يسمع صوتها أحد.

* * *

عادت جميلة إلى عملها. قالت زميلاتها لها :
- لقد تناقص وزنك كثيرا. ألست سعيدة فى زواجك ؟.
ابتسمت رغما عنها :
- كل السعادة.

انطفأت ابتسامتها الساحرة، التى فتن بها توتو. لم تعد تنظر إلى رواد الفندق فى شرود، حالمة بان تتزوج واحدا مثلهم. أو باحثة عن أقرب شبيه لتوتو بينهم.

تمسح البلاط وهى تخفى دموعها. ذهبت لبخيت قبل أن يتزوج فايقة :
- ماذا فعلت يا أستاذ ؟
قال فى آسى :
- حدثته يا ابنتى. للآن لم يقل لأبيه عن زواجه منك.

سيد لم يعد سيد. كلما حاولت أن تحدثه تجده فى عالم آخر. شاردا. يتحدث عن أشياء غريبة. شدته أمها من ملابسه :
- أفق يا سيد. أنت الذى أتيت به إلى بيتى. ومسئول عن إعادته إلينا.

شد يدها فى عنف. لم يعد يخشاها كما كان. أجل سيد تغير كثيرا. أحست جميلة أنه يريد أن يضرب رأسها :
- لا تقولى لى هذا. أنت السبب فى كل ما حدث. زوجته بالخداع. وتريدين أن تحمليني نتيجة فعلتك.
صاحت زكية فيه :
- لماذا تحدثها هكذا يا سيد ؟!
أشاح بيده ثانية :

- مشاكلكن لا تهمنى. أبتعدن عنى.

أسرعت جميلة إليه وربتت على كتفه :

- من أجلى يا سيد، أنا جارتك منذ زمن بعيد.

- أجل يا سيد. قل لنا من أجل أختك جميلة.

- هكذا تغيرت أمها وهى تحدثه.

- لقد قابلتــه، وطلب منى ان أتفاوض معكم بشـأن المبلـغ الذى تطلبونه.

صاحت جميلة باكية :

- لم نطلب منه مالا.

تمتمت أمها بأسى :

- إذن هو يريد الطلاق ؟.

- أجل. وسوف يدفع لكم ما تريدونه.

أسرعت إلى غرفتها وبكت. تبعتها أمـــها وأختــها زكية. ودت أن تنهى حياتها، ما الذى أتى بتوتو إلى بيتهم ؟. وما الذى جعلها تتزوجه ؟. أحست أنها تحبه كثيرا، وأن أمها فعلت بها خيرا بخدعتها تلك. رغم الفارق بينها وبينه. وإن لم تكن تزوجته، كانت ستذهب إليه فى كل مكان يذهب إليه : فى الكلية، فى الإذاعة وربما فى بيته أيضا.

دخلت مجموعة أخرى من الشبان. كانوا يتحدثـــون بصوت مرتفع. أحست بأنها ستجده داخلا معهم. تملكها ذلك الإحســاس. لدرجة أنها أسرعت بالدلو والممســحة بعيــدا، حتى لا يراها بهما.

(١٥)

أحس صبحى السورى أن بين الحكش وحليمة العالمة شيئا ما. فهى تغنى وتنظر إليه من وقت لآخر. وهو يحاول أن يخفى اهتمامه بها. قبل البدء فى العمل.

وعند الاستراحة يجلسان متجاورين، يتحدثان همسا.

أفراد الفرقة كلها يحسون بهذا، حتى الذيـــن يــؤدون نمرتهم ويذهبون.

عرف صبحى حكايته مع حربية. وعـــرف مــدى تعلقها به. قال صبحى له، وهم يستعدون لبدء العمل :

- أخشى أن تتعلق بحليمة.

- ماذا ؟

- إنها تهتم بك كثيرا.

كان عبده فاكهة يجرب أكورديونه. والطبال يضـــع طبلته فوق النار ليشد جلدها وحليمة تغــير ملابســها خلــف المنصة.

قال الحكش :

- ما رأيك فيها ؟

- البنت جميلة ما فى هذا شك.

- ماذا لو تزوجتها ؟

صاح صبحى مندهشا :

- أجننت ؟. حربية تحبك، كما أن أسرتك لن تسمح لك.

أصدر أكورديون عبده فاكهة صوتـــا حزينـــا. ودق الطبال دقات عنيفة ليختبر الجلد المشدود.

- حليمة أجمل من حربية بكثير. كما اننى أرتاح إليها.

قال عبده فاكهة للحكش :

- جاهز يا ريس.

قـــام صبحى من مكانه. "فرقة الفنان عبـــد الحميـــد عبد الله الشهير بالحكش، تحييكم".

أتت حليمة، جلست بجواره، فى المقعد الـــذى كـــان صبحى يجلس فوقه.

نظر الحكش إليها فى أسى. كانت تبتسم. وجهـــها يشع نورا، عيناها تلمعان.

حربية وجهها أسود، يشم من جسدها رائحـــة عفـــن الورق. حتى وهى معه فى المنتزة أو السينما. أو فـــى أى مكان آخر. سألها مرة عن هذا، غضبت وقالت :

- "إنها تستحم كل ليلة بعد عودتها للبيت. وتسـكب نصـف زجاجة عطر فوق جسدها قبل أن تذهب لملاقاته".

قال الحكش وقتها لنفسه : ربما أن إحساســـه هـــذا راجع لتعوده أن يطارحها الغرام فوق بالات الورق الملقاة منذ وقت طويل. وأنه كلما رآها يتذكر بالات الورق، فتشم أنفـــه رائحة عفن الورق.

قال حليمة هامسة :

- أراك على غير عادتك، ماذا حدث ؟

- لم يحدث شئ.

حاول الابتسام، ثم انشغل بالحفل والنقطة.

قامت - هى - اهتزت على المسرح. لو كان بين المدعوين أقارب له، لأحسوا بأنه يطيل النظر إليها وهو شارد.

وجهها تحت الأضواء جميل، رقبتها بيضاء كالنيون المعلق فوقها.

* * *

حرك عبده فاكهة أكورديونه بيده، نظر إلى الحكش فى دهشة. أول مرة يراه شاردا هكذا، جسد حليمة ممتلئ فى أسفله، لقد أعانته، فضلت أن تعمل معه، مع أنها كانت تعمل مع سيد منذ وقت طويل وكان يشاع أنها تحبه وستتزوجه.

تحبه - هى - أكثر من حب حربية له. فهى من الممكن أن تتزوج أحسن منه الكل يرغبها. ليس بها ما يعيب. لكن حربية لن تجد زوجا مثله. فهى ليست بالجميلة ولا بالغنية.

غنت حليمة "حبيبى أهه" وأشارت بإصبعها إليه، لاحظ صبحى هذا رغم أنها أرادت أن تجعل الإشارة خفية لا يحسها سوى الحكش.

وصلت الرسالة وأدت مفعولها. سيتزوجها ويحدث ما يحدث.

- أجل، سيتكلم مع أمه فى هذا غدا.

* * *

بعــد أيام جاء إلى بيت تركية رجل بسيارة. ســـأل عن بخيت عوضين. خرج ياسين إليه من عشته، قال :
- أنا بلدياته.
- أريده فى شئ هام.
- لكنه خارج البيت الآن. سيعود بعد ساعات.
- سأترك له "الكرت" ويأتى لمقابلتى مساء، سأنتظره.
ثم دار بسيارته وعاد.
ظل ياسين ممسكا الكرت مدة طويلة. حتى رأى شابا من الحارة يجيد القراءة قال له :
- اقرأ الكرت.
- قرأ الشاب.
- إنه موسيقى. ملحن بالإذاعة. لماذا أعطاك الكرت ؟
- لبخيت عوضين.
نشر الشاب الخبر فى الحى كله، بخيـــت عوضيــن يسعى الملحنون إليه الآن.
ذهــب بخيت مع ياسين إلى الملحــن، ســمحت لــه تركيـــة بذلك من أجل خاطر الأستاذ (منـــذ أن غنـــى فـــى الإذاعة وفايقة تناديه بالأستاذ. وجاراها فى ذلك بعض سكان البيت).
بخرته فايقة قبل أن يخرج. وأصرت أن تعطى ياسين مبلغا من المال، قائلة :
- اركبا عربة حنطور. من اليوم لابـــد أن يتنقــل الأســتاذ بالحنطور.
قابلهما الملحن الكبير فى شقته. قال لبخيت :

- لقد سمعتك فى الحفلة. سألت عنك فـــى الإذاعـــة. ولـــم أتوصل إلى عنوانك سوى بالأمس فقط.

- أشكر لك اهتمامك.

- صوتك مميز. ويسعدنى أن أتعامل معك.

فرح بخيت وقال :

- ذلك شرف عظيم.

- لدى كلمات أغنية مناسبة لك. ليتك تغنيها. اختر الوقـــت المناسب لك.

- لو من الآن أنا تحت أمرك.

اتفقوا على الموعد وعادا إلى فايقة بالحنطور أيضا.

زغــردت عندما دخلا باب البيـــت، قـــالت تركيـــة بصوت سمعه الجميع :

- بخيت قضى على الجزء المتبقى من عقل المسكينة.

قالت زكية :

- لم يكن بعقلها جزء سليم حتى قبل أن يتزوجها.

نام بخيت فوق ظهره على الفراش. وفايقة ترقد على الأرض، واضعة ذراعيها فوق صدره فرحة :

- لن أعمل مع العوالم من اليوم.

- قلت لك هذا من قبل.

- كل شئ بأوانه.

* * *

تجلـــس العجوز فوق المقعد، لن تنتظر حتـــى يبـــدأ العام الدراسى بعد أيام قلائل. ثم تنتظر حتى ينجــــح توتـــو.

ماذا سيحدث إذا لم ينجح ؟! الأموال التى تركتها له أمه تكفيه العمر كله.

توفيق يبتسم للعجوز. لكن فى قرارة نفسه يتمنى موتها اليوم قبل الغد. فهى دائماً تذكره بأموال وأملاك ابنتها التى فى حوزته.

بسيمة تقف بردائها الذى يكشف عن ذراعيها الممتلئين رغم البرد الذى اشتد هذه الأيام. تعرف بسيمة أن العجوز لو أثارت موضوع أموال وأملاك ابنتها التى ماتت، ستتغير حياتها، وسيقل دخل زوجها كثيرا. وقد تنبه العجوز الولد توتو للمطالبة بأمواله. لهذا تحسن معاملته هذه الأيام وتحسن معاملة العجوز.

كريمة منشغلة مع توتو. يتحدثان معا. لاهيين تماما عما يدور بين الكبار.

- ذلك غريب يا حاجة. أزوج ابنى وهو مازال فى الكلية.
- ما غريب إلا الشيطان. لن تنفق عليه من مالك.
- يا حاجة لا تعودى ثانية إلى هذا الموضوع.

أحست بسيمة أنه قد آن لها أن تتدخل. حتى لا يفسد توفيق كل شئ.

- الموضوع بسيط يا توفيق.

دق الباب، أسرعت بسيمة إليه، كانت تركية تقف أمامه. ابنتها زكية تتوارى خلفها وجميلة تقف بعيدا منكسرة، ويعلق برموشها بقايا دموع.

- الأستاذ توفيق موجود ؟

نظرت بسيمة إلى الداخل حائرة :

- امرأة تسأل عنك.

كان توتو خائفا، كلما دق الباب أحس أنهم سيأتون لمقابلة أبيه. لكن بعد مرور الأيام نسى هذا، وعاد إليه هدوؤه. لهذا. لم تلفت نظره تلك الدقات كان مازال مشغولا بكريمة.

وضع توفيق قدميه فى الشبشب، وخرج إلى المرأة :

- سيادتك الأستاذ توفيق ؟

- تفضلى.

أشارت إلى ابنتها - دخلت هى الأول. هب توتو فزعا. العجوز كانت تنتظر توفيق لترد عليه الرد المناسب. حضور تلك المرأة الغريبة أحبط عزمها.أموال ابنتها تتمرغ فى خيرها بسيمة، التى كانت تأتى لتساعدها فى عمل البيت نظير مبلغ مساعدة لأبيها الذى يتصل بصلة قرابة بها، لكن من بعيد. اختارتها العجوز زوجة لتوفيق ظنا أنها ستصون العشرة وستحمل الجميل وتعامل الولد توتو معاملة حسنة.

عجلت العجوز بالخطوبة، والآن تريد ان يتم الزواج سريعا. حتى تعود الأموال إلى ابن درية وابنة دولت.

تظاهرت تركية بعدم رؤيتها لتوتو. جلست على مقعدها محنية رأسها. وزكية فعلت مثلها. لكن جميلة لم تستطع. نسيت كل ما قالته لها أمها. ونسيت وجود الناس جميعا. وأسرعت إليه باكية :

- توتو.

ارتعش جسد كريمة كله. والعجوز تراخت قسمات وجهها. انشغلت عن عزمها لمواجهة توفيق بذلك الموقف المحير.

تحدثت تركية وهى مازالت تنظر إلى أسفل. مدعية الحياء :

- يا أستاذ توفيق ابنك تيمور. جاء وسكن بيتى.

نظر توفيق إلى ابنه مندهشا :

- ثم أغوى ابنتى جميلة.

أحنت جميلة رقبتها، وودت لو أمها كفت عن الحديث.

استندت العجوز على عصاها، تململت فى جلستها.

- وتزوجها.

صاحت العجوز ثائرة، وهى تشهر عصاها من مكانها :

- ابن ابنتى، يتزوج ابنتك أنت ؟

نظرت تركية إلى العجوز متفحصة وجهها وملابسها. لكن ابنتها زكية - التى تجلس بجوارها خصيصا لهذا - لكزتها فى جنبها حتى تتماسك، فتماسكت، لكن توفيق هو الذى ثار :

- أجننت. ابنى يتزوج ابنتك. كيف ؟

- اسأله يا بك. اسأله.

كان توتو ينظر إلى الجميع فى نظرة واحدة. تأثير هذا على كريمة، وعلى جدته، وعلى أبيه وبسيمة. حمد الله لأن خالته دولت لم تأت معهما. وإلا أنهت كل شئ قبل أن تكمل تركية قصتها. قالت زكية مبتسمة :

- توتو. لماذا تركت زوجتك جميلة ؟. إننا لم نقصر معك في شئ. تزوجت في شقتنا. وأكلت أكلنا.

وقفت كريمة، بكت وانتحبت بصوت كالانفجار. قالت :

- جدتي. إني ذاهبة إلى البيت.

لم ترد عليها. كانت مشغولة بابن ابنتها. قال توفيق وهو ينظر إلى ابنه :

- لاشك أن في الموقف خطأ ما.

وقف توتو، أسرع إلى حجرته. لن يستطيع أن يكمل المشهد الحزين.

أخرجت تركية قسيمة الزواج. مدتها للأب قرأها الأب في دهشة، فقال لبسيمة التي تتابع الكلمات دون أن تفهم ما فيها :

- انظري، ماذا فعل توتو ؟.

قالت العجوز :

- هل كلام هذه المرأة حقيقي ؟

- اقرئي.

قرأت العجوز، ثم أعادت القسيمة لتركية قائلة :

- وتريدين الآن مؤخر الصداق ليطلقها ؟

صاحت جميلة رغما عنها :

- لا. نريده أن يعود كما كان.

لكزتها زكية التي كانت تجلس بينها وبين أمها - لكنها لم تصمت. صاحت العجوز فيها :

- كيف يعود إليكن ؟. سأدفع مؤخر الصداق. وسأجعله يطلقها.

قالت تركية في استكانة :

- ليس مطلبنا هو الطلاق.
أراد توفيق أن يتحدث. لكن العجوز صاحت غاضبة :
- نحن ليس لدينا حل سوى هذا. لاشك أنكن خدعتن الولـــد الصغير، استغللتن وجوده بينكن وحده.
وقفت تركية غاضبة. لم تحس بلكزة ابنتها في جنبها :
- كفى يا امرأة عن قولك هذا. نحن لم نخدع أحدا. ابنكـــم هو الذى أغوى البنت الصغيرة وقضى على مستقبلها.

نظرت بسيمة إلى باب الشقة، تأكدت أنه مغلق. ثـــم أغلقت أبواب النافذة والشرفات، حتى لا يسمع الجيران صوت تلك المرأة.

وقفت العجوز، وأشهرت عصاها قائلة :
- لا تصرخى أيتها المرأة. وإلا جعلتك تخسرين كل شـــئ. اننى عجوز وأفهم هذه الأشياء جيدا، بالحسنى ستأخذى مؤخر الصداق.

شدتها زكية بعيدا بعد أن خافت من المرأة الثائرة.

وقفت جميلة، بعـــد ان أحســت أن لا جـدوى مـــن عودوته. فهى لم تأت لكى تأخذ مالا. عندما ألحـــت أمـــها عليها بالحضور. كان أملها أن يحن توتو لعشرتـــها عندمـــا يراها ويعود معها.

فتحت الباب دون قول وخرجت. تابعتها المرأتان فى صمت. قالت العجوز فى صرامة لبسيمة :
- استدعى ذلك الولد.

سارت بسيمة إلى حجرته ونــــادت. جـاء بعــد أن ارتدى ملابسه وجفف دموعه.

قالت العجوز :
- تعال يا ولد إلى المأذون لتطلقها.

(١٦)

وصلت الأخبار لفايقة، وهى فى شـــهر العســل. أن سيد قد عاد إلى دكان أبيه وحده – إنه يديـــره الآن بنجــاح. أحست بالسعادة. رغم انه لم يرسل إليها دخل الدكان كل ليلة كما اتفقــت مع منصور – أكبر العمال فى الدكان – قـــالت فى نفسها، عندما أعود إلى الدكان، سآخذ منه كــل الإيــراد. كما أنها لم تكن مستعدة لأن تشغل نفسها بشيء آخر ســـوى زوجها بخيت.

عندما عادت إلى الدكان، ترك سيد المكتب لها وجلس بجانبها. ولد من الدكان حمل مبخرة وبخرها. ثم بخر كـــل الملابس فى الدكان.

كانــت تضع روجا خفيفا فـــوق خديـــها وشفتيـــها. وتلوك "لادنا" طوال الوقت.

قالت :

– الحمد لله أنك عدت يا سيد. إنها بركة دعاء بخيت لك.

قال سيد بعد لحظات وفى هدوء. حتى لا يسمعه أحد من العاملين :

– سعيدة أنت الآن ؟

أحست بالخطر. طريقته تلك فى الحديث، تذكرها بأفعاله مع هريدى. حتى جعله يهرب منها، لكن بخيت لا يستطيع تحمل كلمة واحدة من كلماته التى يقولها لهريدى :

- ماذا تريد يا حبيبى ؟

صاح بها رغما عنه :

- أسألك سعيدة أم لا ؟

- الحمد لله. لكن ما الذى يغضبك ؟

- أترك لك الشقة منذ أن تزوجت + وأنا أسكن لوكاندة. على أمل أن تسألى عنى.

قامت إليه :

- سيد، أنا تحت أمرك. لا تثر فى الدكان مشكلة. العمال يتابعوننا.

- إنه دكانى. والشقة شقتى. أم نسيت أنهما للآن باسم أبى.

- أجل، كل شئ ملكك وحدك أنا لا أمتلك شيئا.

- لماذا إذن أنا فى لوكاندة ؟. وأنت فى الشقة سعيدة مع زوجك.

- ماذا تريد، قل وسأنفذ حالا.

- أريد شقة منفصلة لى.

- من عينى. من الغد سأبحث لك عن شقة. بل من الآن. المهم أن تكمل جميلك ولا تتشاجر مع بخيت. كما كنت تتشاجر مع هريدى.

- لن أتشاجر معه. هريدى كان يريد أن يأخذ الدكان منى، فطردته.

نادت على صبى الدكان. قالت له :

- اطلب قهوة للمعلم سيد.

* * *

دهش الحكش عندما ذكرت له امرأة، كانت تتفق معه على إقامـــة حفل، إنها تريد ضمن فناني الحفـــل المطــرب بخيت عوضين. وذلك في زفاف ابنتها.

قال الحكش :

- تعرفينه ؟

- أجل، الإذاعة تذيع أغانيه كثيرا.

لم يجبها، قالت :

- ماذا، ثمنه غال عليك ؟

- لا. لا. سأتفق معه. وسيحضر بإذن الله.

ذهب الحكش إلى بيت تركية. قال لياسين في ضيق :

- بخيت مازال يسكن هنا ؟

خرج ياسين إليه :

- أجل يا حكش. لقد تزوج فايقة أم السيد.

انشغـــال الحكش بالفرقة جعله لا يعرف ما يحدث في الحارة.

- أريده يا ياسين في موضوع هام.

دق ياسن نافذة فايقة، صاحت من الداخل :

- ماذا تريد يا ياسين ؟. الأستاذ في الحمام الآن.

خرج ياسين من عشته. وسار إلى الحكش :

- تعال. سنقابله في شقته.

استقبلتهما فايقة مرحبة :

- الأستاذ سيأتي لمقابلتكما الآن.

دخلت إليه، همست في أذنه. أراد أن يخرج إليهما. صاحت :

- لا. لينتظرا بعض الوقت. لن أسمح لك بالخروج الآن حتى لا تصاب بالبرد.

قال الحكش :

- كيف حالك يا أستاذ بخيت ؟

- الحكش ؟!

- لازلت تذكرني ؟

قدمت لهما فايقة مشروبا مثلجا. قال الحكش :

- إننا معرفة قديمة. لهذا أتعشم ألا تكسفني.

- أي خدمة ؟

- أريد أن تخدمني في الاشتراك مع فرقتي في حفل.

- متى ؟

- الخميس القادم.

- اكتب العنوان. وأعطه لياسين.

- لم نتفق على الأجر.

- ليس بيننا فرق.

وهو يودعه قال :

- لقد امتنعت عن إحياء الأفراح. لكن من أجلك سأفعل.

لم يكن الحكش سعيدا. رغم مقابلة بخيت الودية له. كَرِه تلك المرأة التي طلبت بخيت ليغني في حفل زفاف ابنتها. سار منكسا رأسه. لكن لو لم تطلبه. فلاشك أن الكثيرين سيطلبونه بعد ذلك. فهو يزداد شهرة يوما بعد يوم.

لا يدرى الحكش ما الذى يعجبهم فى صوته. فلهجته صعيدية للآن. كما أن صوته حزين للغاية.

* * *

قال الحكش لأمه :

- لن أتزوج حربية.

- الحمد لله الذى أعاد إليك صوابك. فهى بنت خفيفة والناس كلها تعرف ما فعلته بها فى الشونة.

- أجل. فهى لم تعد تناسبنى. سأتزوج حليمة.

- من حليمة هذه ؟

- العالمة.

صرخت أمه، حتى أتت أم يوسف من حجرتها. وأخته من الحجرة الأخرى. ووالده نظر إليهم فى دهشة. ثم عاد إلى النظر من النافذة.

كانت المرأة تولول :

- يالحظى العاثر.

انحنى فوقها :

- يا أمى لا تفضحينى.

قالت أم يوسف :

- ماذا فعلت بها يا حكش ؟

لم يجبها. قالت المرأة :

- يريد أن يتزوج حليمة العالمة.

بكت أخته. وقالت أم يوسف :

- ما الذى يعجبك بها إنها دميمة.

صاحت الأم مولولة :

- تركناك تغنى. ثم أصبحت رئيس فرقة عوالم. وفى آخرتها تريد أن تتزوج عالمة.

- كفى يا أمى الآن. كفى.

دخل حجرته، كانت مقابلة بخيت قد أعادت إليه الأشجان. وها هى أمه تكمل عليه، فتحت أم يوسف الباب، قالت فى عتاب :

- تريد أن تتزوج يا حكش. وعالمة ؟!

صاح بها غاضبا :

- اخرجى من هنا، لا أريد أن أراك ثانية.

* * *

توفيق - الآن - لا يتكلم مع ابنه توتو. يقابله فى الصالة فيدخل حجرته غاضبا، لاعنا، ذاكرا أقوالا كثيرة لا يميزها توتو.

بعد أن يذهب أبوه إلى العمل. ظن أن بثينة ستأتى إليه، ستسأله عن السر الذى يجعله شاردا. أراد أن يحكى لها ما حدث. لكنه فوجئ بها تعامله كما كانت تعامله من قبل أن يهرب ويعيش فى بيت تركية. صاحت فيه للاشىء ثم قالت :

- لقد فضحتنا بفعلتك.

لم يكن فى وضع يسمح له باحتمال أحد. صاح بها :

- لا تتدخلى فى أمور لا تعنيك.

كانت عيناه تقدحان شررا. أكثر من المرة التى صفعها فيها ورماها على المقعد تمتمت. ثم دخلت الحجرة، بعد ذلك تجنبته. لم تحدثه طوال اليوم.

دق التليفون، ردت بسيمة. كانت العجوز تتحـــدث، قالت لبسيمة فى جدية شديدة :

- أعطنى الولد توتو.

وضعت السماعة بجوار التليفون وصاحت :

- **تليفون يا توتو.**

ثم تركت الصالة كلها. قالت العجوز فى لهفة :

- تعال يا توتو حالا. البنت دولت مصرة على ترك الشقـــة هى وابنتها.

أسرع بارتداء ملابسه. بسيمة أحست أن فى الأمـــر شيئا. حاولت أن تسأله عما حدث، لكنها لم تستطع.

* * *

كانت دولت بملابس الخروج وحقيبة الملابس الكبيرة بجوارها، حياها توتو لكنها لم ترد.

خرجت كريمة من حجرتها، ثم عادت ثانيـــة عندمـــا رأته.

قالت العجوز من مقعدها الأثير :

- **الحق يا توتو. إننى لا أجد أحدا أتحدث إليه عن أفعالها.**

اقترب توتو من خالته :

- خالتى، ماذا حدث ؟

صاحـــت فيه، وجهها كانت منتفخـــا لنهايتـــه. لـــو أزادت شيئا سينفجر :

- ماذا تريد ؟
- لماذا تريدين أن تتركى الشقة ؟

صاحت العجوز من مكانها :

- الخائبة. ليس لها شقة أخرى تذهب إليها.
- سأسكن فى شقة مفروشة. فى بنسيون. المهم ألا أبقى معك.
- لماذا يا خالتى. من أجل زواجى بكريمة ؟
- أجل. من أجل ذلك. إننى سأمنع هذه الزيجة.
قاطعها قائلا :
- لقد جئت لكى أحررك من قيدها. ابق مع جدتى. هى فى حاجة إليك.
صاحت العجوز غاضبة :
- لا. لابد أن يتم الزواج كما أشاء.
اقترب توتو من جدته :
- لا يا جدتى، خالتى عندها حق. أنا لا أستحق كريمة. ولن يتم الزواج.

أحست دولت بالارتياح. لكن البنت كريمة خرجت من حجرتها ثائرة. صاحت فى توتو :
- وأنا لا أريد أن أتزوجك. لا أريد.

ثم انكفأت تبكى فى حرارة.
أمسك توتو حقيبة خالته وأعادها لحجرتها :
- ارجعى يا خالتى. وكل شئ سيكون كما تريدين.

أحست العجوز بغصة فى صدرها، بآلام فى جنبها. خنجر دسته البنت دولت فى قلبها. حلمها منذ أن ماتت درية أن تزوج ابنها الوحيد لابنة دولت المتمردة دائما. لكنها - كعادتها - عارضت وضيعت كل أحلام السنين.

دخلت دولت حجرة ابنتها، وأغلقت الباب. شدتها من ذراعها غاضبة :

- ماذا جرى لك. لقد غضبت عندما قال أنه لا يريد أن يتزوجك. ماذا. أمازلت تريدينه ؟!

كانت غاضبة لدرجة كبيرة، فرمت ابنتها على الفراش. بكت الابنة. بكت على كل شئ : حبها الذى ضاع. وغدر توتو وتحقيره لها .. (أجل، زواجه من ابنة تلك المرأة التى جاءت بالأمس - تحقير لها) وبكت - أيضا - قسوة أمها عليها.

- مازلت تحبينه يا بنت ؟

- أجل أحبه.

صفعتها فوق وجهها، وقالت :

- مازالت جدتك تذكرنى بفعلتى، عندما هربت مع أبيك. مازلت أعاني مما حدث ولن أسمح لك أبدا أن تعيشى فى هذا العذاب.

بكت كريمة :

- لا أريد أن أسمع صراخك. اصمتى.

ثم خرجت إلى الخارج. كان توتو يجلس بجوار الجدة الحزينة :

- قل لى يا ولد حكايتك مع هؤلاء النسوة. كيف لعبن بك ؟.

حكى لها ما حدث بالتفصيل، كانت الجدة تضحك من وقت لآخر. ثم علقت على ما حدث بقولها :

- كل هذا من أبيك. رجل ضعيف الشخصية. جعل بسيمة تركبه وتمسك لجامه. وبسيمة عاملتك بسوء. فاضطررت أن تعيش وحيدا عن جدتك. فحدث لك ما حدث.

* * *

وقف تاكسى أمام بيت أم يوسف. خرج الحكش وخلفه حليمة العالمة. بعض النسوة كن يجلسن أمام بيوتهن.

- إنها حليمة العالمة. ما الذى جعلها تدخل الحارة بتاكسى.

كانت ترتدى ثوبا عاريا. وتغطى ظهرها بشال. ابتسمت لطفل ظل ينظر إليها فى دهشة، داعبت وجهه. لكن الولد ابتعد وهو مازال مندهشا.

دق الحكش الباب، فتحت أخته. دهشت عندما رأت حليمة أمامها. قالت حليمة مبتسمة :

- كيف حالك يا كاملة ؟

لم ترد على حليمة الدهشة أسكتتها.

سار الحكش معها. وقفت الأم مندهشة. مدت حليمة يدها إليها :

- كيف حالك يا "نينة".

ثم أسرعت وضمتها لصدرها وقبلتها. لكن المرأة ابتعدت عنها جزعة. نظرت إلى ابنتها شزرا، قال الحكش ردا على نظرتها تلك :

- جئت بحليمة حتى تريها عن قرب.

- أعرفها جيدا، فهى تسكن فى بيت العوالم.

- جئت يا نينة لتقولى لى، لماذا ترفضين زواجى منه ؟.

– يا ابنتى ليس لى رأى فى هذا. أخوته الكبار سيقولون كلمتهم.

ثم قامت من مكانها، ذهبت إلى حجرة أخرى.

دخلت كاملة، قدمت لها شرابا. وضحكت معها. ظلت حليمة – للحظات – تنتظر عودة الأم. لكنها لم تعد. همست للحكش :

– أريد أن أذهب.

– إنك لم تأت سوى من لحظات قصار.

– أحس بالاختناق الآن.

أخذها وسار. تابعتها العيون طويلا. لم تذهب لبيتها. فقد حذرتها أمها طويلا من هذه الزيارة. أخذها الحكش بتاكسى من الكوافير. كأنها ذاهبة إلى زفافها.

قالت وهى تسير :

– أمكَ أذلتنّى.

لم يرد عليها. قالت :

– أريد أن أجلس فى مكان بعيد.

ركبا تاكسى من شارع إيزيس، ذهبا إلى كازينو الشاطبى. هناك طلبت منه سيجارة أشعلتها وأخذت تنظر إلى دوائر دخانها. لم تقل كلمة واحدة طوال الجلسة.

* * *

جاء محمود عبد الله – شقيق الحكش الأكبر – وصاحب شونة الورق التى تعمل بها حربية. كان ثائرا. بكت الأم لابن زوجها :

- أبوه كما ترى لا يعى شيئا حوله. وأنت لاه عنه بتجارتك. ولا أحد معى. أختك لم يطلبها أحد للزواج للآن. من يرضى بمصاهرة صاحب فرقة عوالم.لقد غضبت عندما علمت بهذا، لم أنم طوال الليل.

دخل الحكش فرحا، فأخوه محمود لا يأتى لبيتهم إلا فى المناسبات :

- أهلا أخى.

صاح غاضبا :

- لو مقدر أن لك أخا ما كنت فعلت ما فعلته.

- ما الذى فعلته ؟

- على آخر الزمان، تريد أن تتزوج عالمة.

جلس الحكش منكسا رأسه. ولم يرد :

- فكر فى أخوتك. أول واحد من عائلتنا كلها - بل مَن بلدنا كلها - يعمل مع العوالم.

لم يجبه، قالت الأم :

- يا ابنى، زواجك من هذه الفتاة لن يجعلنا نرفع رأسنا فى "غربال". أختك لن تتزوج أبدا.

أكمل أخاه بلين :

- أنت يا حكش عاقل وتحب أخوتك. دعك من هذا الموضوع لأجل خاطرى.

قام الحكش حزينا. سار حتى حجرته.

سارت كاملة. خلفه. نظرت إليه. وجدته يبكى.

* * *

وصل الخبر لحربيـــة. أن حليمـــة العالمـــة زارت الحكش فى بيته. لأجل أن تتزوجه كـــادت تجـــن. خلعـــت جلبابها المتســـخ. الذى تعمـــل بـــه. وارتـــدت ملابســـها وأسرعت الخطى إلى الطريق. دون أن تستأذن معلمها.

لم يكن الحكش موجودا. بكت لأمه :

- يا خالتى. أنا أحق به منها.

أشاحت المرأة بيدها قائلة :

- أنا ناقصاك ؟!

بكت حربية :

- يا خالتى أنا .....

صاحت الأم غاضبة :

- ابنى مريض منذ الأمس. ولم يذق طعم النوم. دعيه الآن فى حاله.

قالت كاملة

- مادمت غير موافقة على زواجه من حليمة العالمة. عجلى بزواجه من حربية ذلك هو الشيء الوحيد الذى سيبعدها عنه.

أشاحت الأم بيدها ولم تقل شيئا.

* * *

كان الحكش يستعد لحضور حفل كبـــير، ينتظـــر أن يأتى له منه مبلـــغ كبير (نقطة). فأصحاب الحفل معلمـــون فى وكالة الخضار. والنقود معهم كثيرة.

قال لأمه :

- ادعى لى. لو سهل الله لى فى هذا الحفل. سأعطيك .....

قاطعته قائلة وهى تقبله :

- لا أريد شيئا لى. كل ما أريده لك أنت. أن تريــح قلبــى وتتزوج قال مبتسما :

- اطمئنى. لن أتزوج حليمة العالمة.

- لن أطمئن قبل أن تتزوج حربية.

- أجلى هذا لما بعد الحفل.

- لا. أريد أن تعطينى كلمة الآن. لأذهب لأمــــها وأتفــق معها.

- إننى مشغول للإعداد للحفل.

- وأنا أيضا مشغولة من أجلك.

- افعلى ما تشائين.

(١٧)

في إحـدى الحفلات التـــى كـان يحييــها بخيــت عوضين، اقترب صاحب كازينو مشهور فى القـــاهرة منـــه، عرض عليه أن يغنى فى الكازينو كل ليلة نظير مبلغ كبير.

قال بخيت :

– أنتقل إلى القاهرة ؟

– أجل. فتلك الخطوة كان يجب أن تخطوها منذ زمن بعيد.

– أجل .....

قال لفايقة ليلتها، أجابته :

– وماله. نسافر القاهرة.

– وأنت ؟ تسافرين ؟

بكت ليلتها، أول مرة يغضبها :

– تريد أن تسافر وحدك ؟

– لا. إنما خشيت أن ترفضى السفر معى.

– لو طلبت روحى سأعطيها لك.

* * *

قالت فايقة لسيد وهما فى الدكان :

– ما رأيك لو تركت لك شقة والدك ؟

– وأنت ؟

– سأسافر مع بخيت إلى القاهرة.

- والدكان ؟
- أنت الخير والبركة.
لم يصدق سيد.
- تتركين كل شئ من أجل ...
- أجل. سأترك الشقة لتتزوج فيها.
مط شفتيه وسار إلى عمله.

* * *

أقيم الحفل فوق سطح بيت في الحارة المجاورة للحارة التي يسكنها الحكش.

جلست حربية في "الكوشة" مرتدية ثوبها الأبيض، والحكش بين أصدقائه.

دخن الحشيش – كما كان يفعل قبل أن يرأس الفرقة– وشرب البيرة حتى سكر.

حليمة العالمة ضاعت منه إلى الأبد. هكذا أرادت أمه وأخوة محمود. وأم يوسف. ومعظم سكان الحارة.

لوح للجميع بكأس البيرة. ثم رماه في الحائط القديم. ضحك الموجودون قالوا : .

- الحكش سكر.

وصاحت حربية خائفة عليه :

- الحقوا به. لقد سكر.

قالوا :

- العروس قلقة من أجل عريسها.

غنى سويلم الحلاق، ورقص، وقلد حركات إسماعيل يس.

حليمة العالمة تسمع صوت الميكروفون من بيتها. يرددون لإغاظتها :

- الريس الحكش. رئيس الفرقة يمسى على "غربال" وأهالى غربال.

أغلقت النافذة فى عنف. أمها قالت :

- ما الذى يغضبك ؟. إنه لا يصلح لك. واحمدى ربنا أنه سيبعد عنك.

بكت حليمة :

- الحكش يفهمنى وأفهمه. إنه يجمع نقطة فى الحفلات. لم أر رئيس فرقة يجمعها.

- كله زائل، اسألينى أنا.

صرخت حليمة. لولا أن النافذة كانت مغلقة. لسمع الجيران صوتها.

- لماذا تصرخين ؟

- ماذا سأفعل ؟

- أمامك سيد. دكان الملابس الكبير. لو اهتم به سيصبح غنيا. وستركبين سيارة.

- سيد ؟!

* * *

بكت تركية وهى تودع فايقة. وسيارة نصف نقل تحمل بعض أمتعتها التى لا تستغنى عنها.

- أراد بخيت أن تذهب معه بملابسها فقط. لكنها اتفقت - دون أن يعلم - مع السائق لينقل لها الأثاث.

اضطر سيد أن يحضر. فأمه ستسافر وتعيش بعيدا عنه. لابد من وداعها ..

ساعد سيد فى نقل الأثاث مع ياسين.

وبخيت يقف بابتسامته الخجلى. مستندا على عصاه.

صافح بخيت تركية وبنتيها. قال لجميلة :

- لا تحزنى من ضياع توتو منك. فسوف يأتى إليك بإذن الله أحسن منه.

بكت جميلة. وقبلته. تعلقت برقبته كأبيها. ثم ضمه ياسين وبكيا معا.

- مع السلامة يا بخيت. يا أيام العز.

بكى ياسين وانتحب. كانت تركية تتابعه فى سخرية.

ضم بخيت سيد فى عنف :

- اهتم بنفسك يا سيد. وتعال إلينا فى القاهرة كثيرا.

- سأفعل.

كان التاكسى فى انتظارهما. سار التاكسى بهما وفايقة التى تبكى دائما. لم تبك هذه المرة. لوحت لهم من زجاج التاكسى.

بعد أن سارت السيارة النصف نقل والتاكسى. سار سيد إلى الجبل. لم يدخل الشقة منذ أن تزوجت فايقة بها.

أسرعت حليمة العالمة خلفه. تركية وبنتاها شاهداها وهى تجرى بجلبابها "البيتى" وشبشبها. والنساء اللاتى كن ينظرن إلى أثاث فايقة المسافر من أمام بيوتهن- ومن الشرفات والنوافذ. شاهدنها تجرى هكذا. توقف سيد :

- انتظر يا سيد.

- حليمة.
- أوحشتنى.

سار ناحية الجبل. وهى تسرع بشبشبها الذى يدفع تراب الجبل للأمام.

- انتظرنى يا سيد.

توقف بعيدا عن الحارة :

- ماذا تريدين ؟
- أريدك.

ابتسم فى سخرية وسار.

ظلت حليمة تتابعه. لم تستطع أن تخطو خطوة للأمام. كانت ابتسامته الساخرة لها، قيدا شل حركتها.

عادت إلى الحارة. مازالت النسوة تتابعنها.

إبتسمت تركية لزكية، واسرعت جميلة إلى الداخل.

*   *   *

أقيم فى شقة العجوز حفل آخر. دولت تقف سعيدة وسط الصالة الكبيرة. تبتسم لكل امرأة تراها. توتو يقف بعيدا. يتابع كريمة التى تتحدث مع خطيبها. نفس الشاب الذى قال له - ليلة خطوبته منها - "بيضا لك فى القفص".

إنه لم يأسف على ضياعها منه، وافق على خطوبتها - فى الأول - دون حماس، أراد أن يفعل شيئا تنسيه ما حدث بينه وبين جميلة.

أسرعت دولت إليه. قالت مبتسمة :

- توتو. ما الذى يجعلك تقف بعيدا هكذا ؟

منذ سنوات طوال لم تبتسم له دولت هكذا.

بسيمة ترتدى ثوبا طويلا. تبدو فيه أكثر طولا. وأكثر امتلاء. وتوفيق برغم برودة الجو مضطر أن يظهر بصلعته عارية، الغطاء لا تتناسب مع مثل هذه الحفلات.

العجوز تجلس فوق مقعدها. تدق بأصابعها فوق العصا دقات رتيبة ..

هى غير سعيدة بهذا الزواج. لكن الكل موافق عليه. كما أن حلمها بأن تتزوج كريمة توتو. أصبح صعبا بل مستحيلا. بعد ان هددت دولت بتركها ..

دولت هى التى بقيت لها من كل الذين أنجبتهم. ماتوا فى صغرهم. وماتت درية – الأميرة – بعد أن تزوجت وأنجبت.

تصيح أحيانا فى دولت، إذا ما غضبت منها :

– ليتك مت فى صغرك مثل أخوتك الآخرين.

تقول هذا لها. لكن ليس هناك من ينافسها فى حبها. حتى توتو ابن درية الغالية لا ينافسها. فهى ابنة الضنا. والقلب الذى عانى من الموت كثيرا. فلتتزوج كريمة غير توتو. المهم أن تبقى دولت معها إلى أن تموت هى. فترث شقتها.

سار توتو مع خالته دولت. لمست أصابعه يد كريمة. شردت كريمة. فهى وافقت على ذلك الزوج بعد أن ألحت الأم وهددت.

أمها تتصرف الآن بحدة. خاصة بعد أن خضعت العجوز لها. وخافت من تهديدها بترك الشقة إلى الأبد.

أحس توتو أن يد كريمة باردة. قالت دولت فخورة :

- خطيب كريمة باشمهندس قدر الدنيا. متخرج من خمس سنين.

الخطيب شكله جميل.

ابتعد توتو. وعاد الخطيب يتحدث مع خطيبته.

توفيق يتحدث فى الحفل مع الرجال. يحكى لهم عن أغرب ما لقيه فى مكتبة البلدية عن سوس الكتب. والأجانب الذين يأتون من آخر الدنيا للإطلاع على بعض المخطوطات النادرة.

وبسيمة تبتسم كثيرا. فيبدو وجهها أكثر امتلاء. وتكشف عن أسنانها الكثيرة المخلوعة.

سارت دولت كالبطة وسط المدعوين. أحسبت العجوز أن ابنتها سعيدة .. لم ترها هكذا منذ وقت طويل. رددت بصوت خافت :

- اللهم زدها سعادة.

تراجع توتو للخلف. وجد الكل منشغلا. فانسل خارجا من الباب. عائدا إلى الشارع.

صدر للمؤلف

الصعود فوق جدار أملس	« رواية »	أقلام الصحوة	١٩٧٧
الشركاء	«رواية »	س مديرية الثقافة بالإسكندرية	٨٢
جبل ناعسة	«رواية »	طبعة أولى المجلس الأعلى للثقافة	٨٣
		طبعة ثانية هيئة الكتاب	٩٣
الجهينى	«رواية»	طبعة أولى قطاع الآداب بوزارة الثقافة	٨٤
		طبعة ثانية دار ومطابع المستقبل	١٩٩٤
شارع البير	«رواية »	أصوات أدبية	١٩٩٥
النجعاوية	«رواية »	دار ومطابع المستقبل	١٩٩٦
إسكندرية ٦٧	«رواية»	أدب الحرب - هيئة الكتاب	١٩٩٨
الإختيار		مجموعة قصصية هيئة الكتاب	١٩٨٦
حفل زفاف فى وهج الشمس		مجموعة قصصية مختارات فصول	١٩٩٨
الهاميل		رواية دار الهلال	١٩٨٨

تحت الطبع

سوق عقداية	«رواية»	دار الطبع والتنمية
دوائر الحرمان	«رواية»	دار منارة الإسكندرية
المساليب	«رواية»	دار مطابع المستقبل
ليالى غربال	«رواية »	هيئة الكتاب